هدى حمد

سأقتلُ كلَّ عصافير الدوري

مكتبة

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

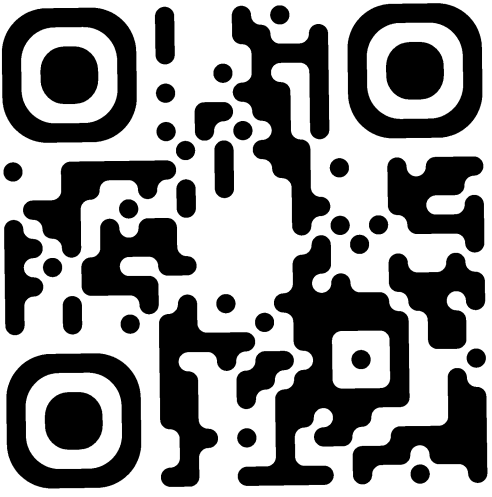

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

سأقتلُ كلَّ عصافير الدوري

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكاتب: **هدى حمد**
عنوان الكتاب: **سأقتلُ كلَّ عصافير الدوري**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-35-3
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024
1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

هدى حمد

مكتبة
t.me/soramnqraa

سأقتلُ كلَّ عصافير الدوري

مجاميع قصصية

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

المحتويات

ما تخبره العصافير في التعريشات

غابة تحيط ببيت ٩
شرخٌ في الحاجب الأيسر ١٥
مصيدة المواعيد الغرامية..... ١٩
سأقتلُ كلَّ عصافير الدوري..... ٢٣
أَخرِج العصفور المحترق من فمي! ٢٥

الديناصورات تُنمِّي ريشها

أولادُ الجن يلعبون!..... ٣١
فستان الشيفون ٤٣
الغِبطة والتفاهة!..... ٥٩
مطبخ العائلة ٦٧
ورقُ جدران بيت زهرة ٧٧

روح متعجلة ٨٧
مئزر أبي يدمى ١٠٧
تمزقُ النُّبل ١١٧

مخلوق بائس يتسكعُ في شحوب

جدي يجرح حقله ١٣٥
فئران مخزن التمر ١٣٩
الأيدي الفارغة في موسم القطاف ١٤١
ثلاث ندب متقاطعة ١٤٥
طحالب الحوض الأسمنتي ١٤٧
دجاجات أمّي تضمرُ كلماتها ١٥١
تيسُ الراعي سليم ١٥٥
خِرق «آريان» وحزنه ١٥٧
يدان مضمومتان في طيّات الثوب ١٦١
الإبعاد الذي يعني مجيء الآخرين! ١٦٣
ثلاث أخوات وهاتف في علبة ١٦٧

اختباءُ الطيور الجريحة

عائدٌ إلى بيت الغابة ١٧١

ما تخبره العصافير في التعريشات

«لم يكن أبدًا تاريخًا سريًا، ولكن الطيور تخبره في التعريشات»

رالف والدو إيمرسون

غابة تحيط ببيت

«بيتٌ محاطٌ بغابة».. هذا ما شعرتُ به وأنا ألتصقُ بزجاج شرفة شقتي المُطلة على بيت الجيران. الأجدر أن أقول: «غابة تحيطُ ببيت». خمنتُ أنّ هذه العائلة المولعة بالأشجار في مكان متصحر وحار كمسقط، لها جذرٌ أصيل بإحدى القرى البعيدة. بدت لي كمحاولة اتصال بائسة برائحة حقول ومزارع باتت غير مرئية من الجبال التي تُحدق بنا. عددٌ هائلٌ من شجر الغاف العملاق والشريش والرول تُحيط بالبيت المُحتجب، البيت الذي لم أتمكن يومًا من النظر إليه بوضوح، رغم أنّي أقطنُ في الطابق الثاني من العمارة المقابلة له، العمارة ذات الطوابق الثلاثة. التحديقُ اليومي دفعني إلى استنتاج أنّ الغافات العملاقة وأشجار الشريش والرول زُرعت قبل أن يبدأ البناء فعليًّا. لكن فضولي والتصاقي اليومي بزجاج الشرفة لم يساعداني على تبين شيء إضافي خلا ملمح ضئيل ومشوش من ملامح جيراننا، وسيارة «الإف جي» السوداء بغطائها الأبيض المركونة خارج سور البيت. السور الذي أذهلني ارتفاعه قياسًا بحجم البيت الصغير!

مكتبة
t.me/soramnqraa

أمشي يوميًّا قبل الغروب بساعة. ساقاي في الحذاء الرياضي، تشقان فتحة عباءتي الطويلة. ينقبضُ قلبي كثيرًا للنشيد الجنائزي الذي تُنهي به عصافير الدوري يومها. تمضي باستلابٍ مجنون إلى بيت الغابة. أرقبُ ذلك الانحدار السريع من السماء كسقوط الموتى، فيعقبه صمتٌ جارح وغير مُبرر كفاية.

أقود جدتي في كرسيها المتحرك، ينبغي أن تشم الهواء خارج الغرف الأسمنتية، وأن ترى الناس والأطفال.. «أي اشتباك بالحياة»، هكذا قال الطبيب.

لسبب غامض لم أستطع كبح فضولي اليوم، كنتُ متشوقة لأرى الحديقة التي تختفي وراء الأشجار الضخمة، غامرتُ بتفويت جولة المشي التي دأبتُ عليها يوميًّا لخسارة بضع كيلوجرامات، قرعتُ الجرس، وبعد بُرهة قصيرة فتحتِ الباب سيدة تكبرني بقليل. أخفى «الليسو» بورداته الكبيرة من جسدها أكثر مما أبدى. ابتسمت وطلبت مني الدخول برحابة صدر. كنتُ متعرقة، خشيتُ أن تطفو رائحتي، ليس من السهل أبدًا جرّ عربة امرأة مُسنة حتى وإن لم تكن سمينة في طرقات غير مهيأة، أُضطر في أحيان كثيرة إلى أن أخرج عن المسار إلى طريق ترابي، فيهتز رأس جدتي برعونة. أعرف جيدًا أنّ الأمر لا يجعلها سعيدة، لكنها لا تضطرب ولا تعترض وعندما أسألها مشاركتي الخروج لا تهز رأسها بالنفي.

أخبرتها أنّني جارتها القريبة، وأنّني قطعتُ للتو كيلومترًا قاصدة ممشى المنتزه كما هي عادتي اليومية، ولكنني غيرتُ رأيي

وقررتُ إلقاء التحية. بدت المرأة بسيطة وطيبة، كانت ابتسامتها المُرحبة تُظهر أسنانها الأمامية شديدة البروز.

أصرت على أن نشرب القهوة معها، كانت قد فرشت بساطًا فوق عشب اصطناعي. دخلتُ وأوقفت مقعد جدتي المتحرك فوق العشب، ثمّ خلعتُ حذائي الرياضي جانبًا، وخشيت مجددًا أن تطفو رائحة قدميّ.

عندما جلسنا في الفناء لم تكن هنالك وردة أو شجرة فاكهة أو ياسمين، لم تكن سوى النسخ المكررة من شجر الغاف والشريش وأشجار الرول المتوحشة غير المشذبة، ورغم اخضرار أوراقها وأغصانها المتشابكة، فإنّ ذلك لم يعكس بهجة من أي نوع. فتحت المرأة غطاء التمر وناولتني فنجان قهوة. وجهها الخالي من المساحيق عكس قدرًا من اللطف والرحابة.

أخبرتها أنّني مساعدة طبيب تخدير في مستشفى، وأنّني أعيش مع جدتي. ربَّتُ على ركبة جدتي المجاورة لي: «لقد تخلى عنها الجميع وأنا لم أقبل أن تدخل إلى مصحة، أعطيها إبر الإنسولين لأنّها مصابة بالسكري، أفعل كلّ شيء لأجلها، أحممها، أطعمها». لم يكن ثمّة داعٍ إلى هذه الثرثرة، لكن أسارير الجارة انفرجت: «عمل طيب» هكذا قالت، «إنّها لا تمشي إلا على هذا المقعد، سمعها قليل، نظرها خفيف، ومصابة بالسكري اللعين كما قلت، لكنها تحتفظ بذاكرة جيدة ولديها حكايات، إلا أنّها لا تتحدث في أي وقت، تختار وقتها دومًا». صوبتْ جدتي نظرتها الفارغة من أي معنى نحونا.

أخبرتني الجارة أنّها لم تنجب بعد، وأن زوجها يعود متأخرًا من العمل وأن أصولها تعود إلى إحدى القرى البعيدة: «لا أهل هنا»، هكذا قالت. كانت بمزاج جيد للحديث، لكني أردتُ الذهاب بحديثنا لمكان آخر: «صنعتم غابة كاملة لكل هذه العصافير؟». نفى رأسها ذلك بحركة مطردة: «لقد زرعها زوجي، قال إنّ بيتنا ذا الطابق الواحد مكشوف على الجيران والبنايات المتطاولة، وإنّهم سيروننا دائمًا، سنكون مكشوفين». ضحكتْ بأسًى: «لم يكن مُحبًّا للأشجار ألبتة، كان يحمينا»!

راقبتُ الجذوع الداكنة، الأوراق الطويلة، الجذور المتداخلة ذات الأجزاء المكشوفة فوق التربة، الظلال الوارفة. أرعبتني الفكرة: «لم يكن يصنعُ بيوتًا لعصافير تائهة، كان يحمي الزوجة من الغرباء»!

في تلك الأثناء شاهدتُ سربا من طيور الدوري يخرج من ثقب بعيد في السماء، رسم تموجات وخطوطا متعرجة، امتلأ الحيز الذي كنا نشغله بجرس تغريده العالي. ذكرني السرب بشيء ما، لم أدركه على وجه الدقة. بدوتُ مشوشة، فلم أقدر على الإصغاء لما تقوله الجارة لي، حكت باستطراد محموم، كمن لم يحظى بفسحة حديث منذ زمن، لكني لم أقبض إلا على صورة أسنانها الأمامية التي لا تحتجب، مهما انفرجت أو انغلقت الشفتان.

حطّ السرب على الأشجار، كما تحط السهام المصوبة، وتناسل النشيد الحزين ملء الفراغ المحدق بنا. رفعت جدتي رأسها أعلى

كتفيها، وأصغت هي الأخرى لأسرار الطبيعة، بينما حاولتُ تخيل عدد الأعشاش التي تختفي وراء تشابك الأغصان والأوراق!

بعد برهة من مغيب الشمس تدرجت السكينة كما تتدرج حمرة الشفق. صار صوت الجارة أكثر وضوحا الآن، لكني لم أتبين ما قاتني من أحاديثها، بدا الأمر وكأنّي أستفيق من شرود طويل.

بعد يومين رأيتُ الجارة تُلوح لي بيدها اليمنى، وأنا في خط سيري اليومي إلى ممشى المنتزه، مُحركة كتلة جدتي الهزيلة أمامي. «الليسو» يكسو جزءها العلوي مُجددًا، لكنه بألوان مختلفة اليوم، كانت الوريقات البنية العائمة في البياض أكثر ما يمكن أن يُلفت انتباهي في لِباسها. «زوجي تأخر في العمل هذه المرّة أيضًا». بدا أنّني غير راغبة في دخول بيتها مجددا: «لماذا لا تخرجين للمشي؟» ترددتْ قليلًا: «أنا بلا صُحبة كما ترين، لنشرب القهوة»، لوحت بيدها، ثمّ اختفت في الداخل وتركت الباب مفتوحا كمن يجذبني لشيء ما. غيرتُ مسار عربة الجدّة، ودخلتُ بيتها للمرّة الثانية. كانت أشدّ ترحيبًا من المرّة الأولى، وكانت شهيةُ الحكي أكثر تدفقًا بين شفتيها.

لم تشعر بأي تحفظ، وكأننا نروي الأسرار لبعضنا منذ طفولة بعيدة، فكل قصّة تفسحُ لأخرى، كل حديث ينبتُ من صلب الآخر، حتى أدركنا الوقت. قمتُ بتعجل ولبستُ حذائي، كانت كل إيماءات جسدها راغبة في استبقائي. لكنني على غير العادة تجاهلتها. مضيتُ أرفع قدميّ جدتي فوق الرافعتين المخصصتين في

الكرسي المتحرك وأصلح من وضع يديها كيلا لا تتعرض لخطر ما. أصمُّ أذني عن تناسل كلماتها وألهث بالفرار من شعور غامض بعدم الارتياح.

وبينما نخرج أنا وجدتي، كان زوجها ينزل من سيارة «الإف جي». وفي تلك الالتفاتة الخاطفة، بدا وجهه مألوفًا بسمرته الداكنة، لكنني لم أتمكن في نظرتي المتعجلة من التعرف عليه. في النظرة الثانية شاهدتُ علامة في حاجبه الأيسر، تلك التي لن تندمل لآخر العمر. لكنه لم يرفع رأسه، لم ينظر إليَّ أبدًا.

شرخٌ في الحاجب الأيسر

صائد العصافير سيريني شيئًا لم يره أحد من قبل، قال بأنّني سأبقى مدينةً له طوال حياتي، وكان عليّ أن أسير خلفه لدقائق. أنا أحبّ الأسرار، أحبّ القصص الغامضة، وكان لدى صائد العصافير إحداها بالتأكيد. قدماي ثقيلتان وقلبي ينتفض والحرارة عالية. يتناثر التراب حولي كلما حثثتُ الخطى. كان يعلم أنّي لن أتخلف عن موعد بهذه السرية. أخرج قطعة قماش وقال بأنّه ينبغي أن أجلس ليربط يديّ جيدًا خلف ظهري؛ هذا ما يتطلبه السر تماما.

تعالى الخفقان ولمس الهواء حبات العرق التي تنز من جبهتي وإبطيَّ. سمحتُ له أن يفعل ذلك، ثم طلب مني أن أمد قدميّ لكي يربطهما لي. قال ضاحكًا: «الفتاة التي تقرأ مغامرات رجل المستحيل والمغامرون الخمسة، ستفعل أي شيء لقاء أن يكشف صائد العصافير حُجُب السر الذي لطالما تحدث عنه». مددتُ قدميّ، وبقطعة قماش أخرى أحكم ربطهما. رفع يده بمنديل ثالث: «بقيت القطعة الثالثة، ينبغي أن أحكم إغلاق فمك». لم يكن ثمة مجال للتراجع الآن في

تلك الظهيرة القائظة، في ذلك المكان المعزول، حيث ينام والداي الآن، ويحل إخوتي واجباتهم، حيث قلتُ للجميع: «سأقطف المانجو والليمون وأعود سريعًا». أغلق فمي. انتشرت رائحة نتنة من قطعة القماش. شعرتُ أنني متجمدة في مكاني. أستلذ بارتجافي وتطلعي إلى ما يخفيه صائد العصافير. شعري المربوط كذيل حصان خلف رأسي، انفلت من ربطته وتهدل على جانبيّ وجهي. تمكنت نسمة الهواء الساخنة أن تلعب بغرتي مرارًا وتكرارًا. لطالما كان ما يرعبني هو أكثر ما يجلب اللذة لقلبي. غاب لدقائق، شعرتُ أنّه يتخلى عني، يتركني عائمة. عاد محمَّلًا بقفص عصافير. ملأت ضحكته المكان الخالي «والآن يا فتاة الكتب، سأريكِ شيئًا لم تقرئي عنه من قبل!» وضحك ككل الأشرار في أفلام الكرتون. بدأتُ أرفس وأرفس ولكني انقلبتُ على جانبي الأيمن ولم أتمكن من فكّ القماش ذي الرائحة الكريهة. فتح القفص قليلًا وأخرج عصفورًا ضعيفًا، يفتحُ منقاره بصورة متلاحقة. «انظري لهذا» ثم كسر له عنقه بحركة صغيرة فتدلى الرأس أمام الجسد الضئيل، تناول عصفورًا ثانيًا وثالثًا، وكنتُ أسمع طقطقة الأعناق بين الأصابع، وكان صوتي المخنوق لا يخرج إلا كأنين شاحب. الأرض الحارة تلتهب تحتي. «والآن يا فتاة الكتب المُدَّعية، علينا أن نكمل القصة للآخر!». حاولتُ أن أرفع جسدي بعد أن تمرغ ثوبي في التراب، بالكاد رفعتُ جذعي قليلًا. ثم أشعل النار فوق أخشاب جافة. أمسك سلّاة النخل وثقب بها أجساد العصافير الميتة. فاحت رائحة الأجساد المحروقة، وكنتُ أزحف متراجعة إلى الخلف. الدخان

يُعمي بصري، يدفع دموعًا قاتمة للانزياح على خديّ. عندما قام من مكانه وأزاح قطعة القماش عن فمي بسرعة مفاجئة، أردتُ أن أصرخ لكنه ألقمني عصفورًا محروقًا، ظل يحشره في فمي، يحشره إلى أن تقيأتُ ودخلتُ في نوبة سعال طويلة. تراخى القماش الذي يزم يديَّ، تحسستُ حجرًا صغيرًا تحت يدي اليمنى وقذفت به إلى وجهه، أحدثتُ شرخًا عميقًا في حاجبه الأيسر فأخذ يدمَى، عرفتُ أنه سيحدث ندبة لن تندمل لآخر العمر، ثم اختفى من أمامي، ولم أعُد أراه في المزرعة، ولا في المصنع الذي نلعب فيه ولا أيّ مكان آخر!

مكتبة
t.me/soramnqraa

مصيدة المواعيد الغرامية

«أراك بصورة مستمرة من شباك بيتي، وأنت تدخل بيت الغابة أو تخرج منه، دعني أسمي بيتك: بيت الغابة، إذ لم أرَ في حياتي كلها بيتًا مُحتجبًا بأشجار خميلة مثل بيتك، في الحقيقة أنا وحيدة وأحتاج بعضًا من الرفقة». مكتبة سُر مَن قرأ

هذا ما كتبته له في صندوق رسائل الفيس بوك، لزمني القليل من الوقت للحصول عليه. ثمّ تركتُ عنوان شقتي دون حيطة أو تفكير مبالغ فيه.

«سيأتي لموعدنا الغرامي، إنّه صيد سهل»، هكذا خمنت. رسالة صغيرة وبات جاهزًا ومتحفزًا للمجيء. حتى أنّ كوني جارته المقابلة لبيته لم يكن ليمنعه من المجيء راجلًا على قدميه، كعصفور يقع في مصيدة!

جلست جدّتي مشبكة يديها فوق فخذيها الهزيلتين، بعد أن حممتها وأطعمتها، ولم أتوانَ عن شرح خطتي لها وأنا أمشط شعرها

المحمر جراء صبغي إياه بالحناء مرّة كل شهر. أسير في غرفة المعيشة ذهابًا وإيابًا، دون أن أشعر بوخزة لوم واحدة، ساردة تفاصيل الخطة، بينما تبتسم جدتي مستعيدة وهجها.

أتوارى خلف ستارة الشرفة التي تركتها منسدلة على غير العادة، ومن خلال انفراجة صغيرة، رأيته يخرجُ مرتديًا بنطالًا رياضيًّا، وقميصًا أبيض، ويلبس نظارته الشمسية التي تكاد تخفي نصف وجهه. مرّ وقت طويل لم يخفق قلبي بتسارع مُماثل. آنذاك رفعتُ سبابتي وقربتها من شفتي مشيرة لجدتي بضرورة ألا نُحدث ضجة.

طبيب التخدير الذي أعمل بصحبته منذ الصباح وحتى ساعات المساء في قسم العمليات، قال لي في المرات القليلة التي طالع فيها قصصي: «إنّها باردة، لا حياة فيها ولا مغامرة.. تفتقد التشويق!» لم أفهم معنى أو نوع الإثارة الذي كان يقصده على نحو دقيق، لكنه كان يثير حنقي!

في استراحة الغداء أتجشمُ مسافة طويلة لأشارك جدتي غداءها، لا يمكن تركها للوحدة، الوحدة تأكل قلب الجدّات وتنخره. تكون هنالك كعادتها تنتظرني، تتعرف عليّ بسهولة، ينبغي ألا تنساني. أخبرها عن يومي البائس والطويل، أستشعر أحيانًا وجود كائن ضئيل يأكل عقلها وذكرياتها، لكنني أستبعد ذلك، إنّه الصمت وحسب وأذى الهجران الذي مسّ أعماقها.

اليوم، وقبل أن أعود لأكمل دورة عملي في الساعات المسائية، مررتُ على محل صغير يبيع أدوات الرحلات. سألتُ عن حبل،

حبل قوي ومتين. سألني العامل الهنديّ بعربية مكسرة: «عشان تسلق؟» لم تكن بحوزتي إجابة، بقيت عيناي مُعلقتين على أكثر الحبال متانة من بين تلك التي وضعها أمامي على طاولة المحاسبة. «هذا» قلتُ له مشيرة بسبابتي، فطواه لي في كيس بعد أن دفعتُ الحساب.

سأقتلُ كلَّ عصافير الدوري

أردتُ قتل كلّ عصافير الدُّوري في قريتي، تلك التي تأتي من مكانٍ خفي وبعيد لتغزو شجر الغاف الملتفَّ حول المصنع المهجور الذي دأبنا على اللعب فيه بعد الظهيرة، آنذاك لم تكن في يدي ساعة ولا أعرف شيئًا عن معنى الوقت، ولكن أدركُ جيدًا بحدسٍ طفولي أنّه يمكن أن أبقى في المصنع المهجور برفقة فتياتٍ وفتيان من لحظة إغلاق حقيبة المدرسة وحتى غياب الشمس.

ولأنّ العالم وقتذاك لم يكن يعدو أن يكون حقولنا ومزارع جيراننا ممن نعرف، فلم يكن ثمّة ما يبهجُ قلبي أكثر من الذهاب إلى المصنع المهجور الذي يتوسطُ حلّتنا. هنالك حيث يمكن للخِرق البالية أن تكون حشوة للدُّمى، ولقطع القماش التي خلّفها الخياط «آريان» أن تكون فساتين، وللفتية المُتسخين بالطين أن يكونوا أمراء.

في أيامٍ كثيرة لم أعد أحصيها، تحتدُّ أمّي ويعلو صوتها الغاضب عندما أتأخر في العودة: «الغروب علامة كافية للعودة إلى البيت»،

فأحبسُ نشيجي تحت بطانيتي البنية وأفكر: «ينبغي قتل كلّ عصافير الدوري بدمٍ بارد».

في المصنع المهجور، ينعدمُ إحساسنا بالزمن تمامًا، نذوب، إلا أنّ وصول أسرابٍ من عصافير الدوري بشكلٍ متواترٍ لشجر الغاف المحيط بنا، كان علامة جديرة بالانتباه، إذ سرعان ما يعقبُ عودتها صوتُ جدي وهو يرفع أذان المغرب. تلك العصافير الضئيلة، التي يختلطُ لونها بين البني والأبيض والرمادي، تملأ السماء بشقشقاتها الجنائزية، فتعلنُ انتهاء اليوم دون مفاوضة أو مساومة، هكذا تتمكن تلك الأجنحة بالغة الرهافة من جلب الظُلمة البائسة دافعة الشمس إلى أفولٍ حزين.

بعد انتهائي من القراءة، صفقت المعلمة، صفق الطلبة، أما صائد العصافير الذي لم يكتب التعبير الحر، فعوقب بالوقوف في آخر الصف رافعًا يديه، ولذا لم يكن قادرًا على التصفيق!

أَخرِج العصفور المحترق من فمي!

لم يقل لي أحدٌ يومًا بأنني أكتب شيئًا جيدًا، ولذا ليس بحوزتي يقين إزاء جدوى ما أفعله في الحياة، التشويش يطال علاقتي بالمرضى أيضًا، عليهم أن يبتسموا أو أن يحركوا شفاههم ليعربوا عن انطباع ما، وإلا فإنّ تجهمهم سيهز اطمئناني، سيجعلني مضطربة لبقية اليوم، حتى أنّ رجفة يدي قد تكسر صحنًا في المطبخ، أو تُطير فردة جورب قبل أن أشبكه على نحو جيد على حبل الغسيل!

كائنات مضطربة بأعين جافلة، هذا ما أراه يوميا في المستشفى، جوار المخاوف التي تبزغ على هيئة أسئلة جامحة، لاسيما قُبيل تخدير المرضى الموشكين على دخول إغماءاتهم الأكثر شبها بالموت. فلولا أنّ صدورهم تعلو وتهبط لصدقتُ أننا نجحنا في قتلهم. علمني طبيب التخدير بأنّ الكلمات التي نقولها للمرضى قُبيل التخدير تجعل الأشياء تمضي على نحو جيد. يتطلب الأمر أحيانًا ترك لمسة دافئة على أجسادهم، أو إبداء التعاطف، كان يقول لي: «حتى لو لم

نكن نعرفهم جيدًا ولم يعبروا حياتنا إلا في تلك اللحظة المؤثرة، فإنّه يتوجب علينا تقديم المواساة لهم كأنّهم أكثر ما يعنينا».

لكنني لم أستطع مجاراته بترديد الكلمات الطيبة، كنتُ ألوذ بوجهي الشاحب كيلا أضعاف شعورهم بالهلع. «إنّنا نهبهم وهم النجاة وحسب، كما يفعل أي بائع مع سلعة بائرة! فنحنُ ندركُ في أعماقنا بأنّهم عقب كلماتنا سيذهبون إلى مصير مجهول لا يعرفون إن كانوا سيعودون منه أم لا!». هذا ما كنتُ أقوله يتحدٍ، فيخبطُ الطبيب ركبتيه بيديه ويتركني كيلا يتوحش الحديث بيننا.

أقرأ قصصي بصوت مرتفع لجدتي الصامتة، لكنها لا تبدو مُمتنة، وتلك النظرة الفارغة من أي دهشة تقتلني. ذات مرّة هززتُ جسدها مرات متتالية حتى أوقعتها على الأرض، فلم يصدر عنها إلا تأوه خافت، فعاودتُ رفعها مُعتذرة لها ثمّ أوقعتها مجددا. لم أتمكن من إخفاء شعوري بالتسلية وأنا أرفعها للمرّة الثانية.

لقد حاولت عائلتي غير مرّة دفعي لإرسالها إلى دار إيواء العجزة، لكني لم أفعل ذلك. تشبثتُ بها، وفرتُ لها كل الاحتياطات الممكنة لتهنأ بعيشها معي. الكرسي المتحرك والسرير الطبي والأدوية، نمكثُ أنا وهي كل مساء جوار الشرفة، أتحدث إليها بشأن يومي وأقرأ لها القصص، فما الذي يمكن أن يجعل عقلها يزدهر أكثر من القصص!

في طفولتي كانت تحكي لي الحكايات فأبدي لها ذهولي وشغفي، لكنها الآن تُسيِّج نفسها بالعزلة وتحتفظ بكلماتها في مكان غامض!

عندما تهدل طرفا فمها، لم أعد قادرة على تمييز إن كانت مُعجبة بما أقرؤه لها أو ناقمة، كان عليَّ أن أتدخل، فما نفعُ الإنسان دون تعابير، اشتريتُ لاصقًا قويًّا من المكتبة ورفعتُ طرفيّ فمها من جانبيه.. بدت جميلة بصورة لا تصدق!

أفاق «صائد العصافير» من المخدر الذي أفقده وعيه لساعات، لكن رأسه ظل يتأرجح يمينا وشمالا. تمكنتُ في لحظات غيابه عن الوعي من تثبيته جيدًا. يداه وقدماه مزمومتان إلى أطراف الكرسي الأربعة، حيث جلس بادئ ذي بدء في زيارته الأولى لشقتي. تأملتُ وجهه في محاولة مني لاستعادة وجه الطفل الصغير الذي كانه يومًا. من الأكيد أنّه يذهب في جولات صيد حتى الآن، ربما أصبح لديه مسدس عوض النّشاب الذي كان يصنعه بيديه من أغصان الليمون والخيط المطاطي.

تأملني بعينين فزعتين: «من أنتِ؟ ماذا أفعل هنا؟ هيا أفلتيني؟»

«لقد جئت لموعد غرامي، أيها الساذج!» ثمّ أطلقتُ ضحكة.

استخدم كل طاقته ليفلت يديه، ولكني اخترتُ حبلًا متينًا، لن يكون كقطع قماش بالية وضعيفة. ظل ينظر إليّ مليًّا، يحاول أن يتذكر أين رأى هذا الوجه. اقتربتُ منه بهدوء، صار وجهي أقرب ما يمكن إلى وجهه، مرّرتُ أطراف أصابعي بخفة فوق جرح حاجبه الأيسر. «كم هو عميق هذا الجرح! كم عمره؟» لاحظتُ خفقان قلبه المتزايد، والتعرق الذي يمضي من الجرح عابرًا إلى خديه.

ثمّ نطق اسمي.

أيُّ صفعة قدرية أن نسكن جوار بعضنا بعضًا؟ لم يرَ أحدنا الآخر منذ الصف السادس الابتدائي. افترقنا، هو في مدرسة أولاد، وأنا في مدرسة بنات. تلك النظرة المنكسرة الآن، أين هي نظرة اللؤم يا عزيزي؟!

حرّك جسده برعونة: «ما الذي تريدينه الآن؟ كانت مزحة طفولية. هل يعقل أنّكِ ما زلتِ تتذكرينها؟ مزحة».

درتُ أمامه دورة كاملة: «أريد أن أعيد إليك العصفور المحروق الذي حشيتَ به فمي، أريد أن أعيده إليك مجددًا على هيئة حكايات، سوف تنصت إليَّ، سوف تنصت لكل الحكايات التي لم ينصت إليها أحد من قبل».

نظر إلى وجه جدّتي مستغيثًا، لكنها لم تهبه أكثر من نظرة فاترة أو ربما مؤنبة. وآنذاك قلتُ له: «لقد أصلحتُ فمها على نحو جيد كما ترى، لكن نظرتها الفارغة تجعلني أغلي مثلك أيضًا، فمهما بالغتُ في شد طرفي عينيها باللاصق، لا تكتسي نظرتها تعابير كتلك التي كانت في طفولتي.. حتى أنّها لم تعد تُبدي الهلع أو الدهشة وأنا أروي!».

أغلقتُ فمه باللاصق بإحكام، «لا أريد مقاطعة.. أرجوك»، ثمّ شاهدتُ الخطوط المتصاعدة أعلى جبهته وعيناه تضيقان وتتسعان. كم أبهجني الضجيج الذي اعتمل فيه دون أن يقدر على إخراج كلمة!

فماذا عساي أريد أكثر من هذه التعابير!

الديناصورات تُنمِّي ريشها

«نمَّتْ الديناصورات ريشًا لتنظيم الحرارة، لكن
تلك التي بدأت في الطيران أصبحت طيورًا»

هوارد راينجولد

أولادُ الجن يلعبون!

أطلُّ على مساحة جرداء قاحلة من نافذة عملي. درجة الحرارة تربو على الخمسين، وشجر السمر متيبسٌ ولا يُنبئ عن أيّ حياة مُمكنة. أدركُ في أعماقي أنّ الحاجز الزجاجي الشفاف بين الداخل المكيف والخارج المُلتهب يُخفي ما تكابده الكائنات الصغيرة من مشقة العيش، لكنّ ذلك لم يمنعني يومًا من ترك كوب ماءٍ وحبوبٍ على إفريز النافذة على أمل أن يأتي طيرٌ أو حتى حشرة صغيرة دفاعًا عن فرص البقاء النادرة هنا.

أقف في استراحات العمل جوار النافذة بصحبة كوب الشاي على أمل حدوث شيء، شيء مُغاير، لكنّ شيئًا لا يتغير، ربما لأنّي أصلُ دومًا إلى بيتي مُتعبة، عندما تغيب الشمس وتكون كلّ الكائنات قد أوت إلى بيوتها.

غبارٌ يتصاعد هذا الصباح. تتحركُ الريح فوق الرمل الناعم ثم ما تلبثُ أن تُحدث زوبعة، تكبر الزوبعة ثم تتوارى بعيدًا، وتنمو أخرى من بعدها. تذكرتُ ما كانت تقوله لي أمّي ما إن ترى رقصة

الريح وحبيبات الرمل: «أولاد الجن يلعبون»، وكنتُ أنظر بشغف إلى الزوابع المُتصاعدة لأتبين هيئاتهم. لكن أمّي تؤكد أنّني لن أتمكن من رؤيتهم لفرط سرعتهم.

سمعتُ صوتًا، ها قد جاءت نعيمة، المرأة التي تُحدثُ ضجيجًا هائلًا. ارتجفتْ يدي وكاد الشاي يندلق على ثيابي. يمكنك أن تدرك الكثير من تكتلاتها الشحمية تحت ثيابها الواسعة، إلا أنّ ذلك لم يُعطل يومًا خفتها ومرحها، لم يمنع صوتها المجلجل ولا ضحكتها أن تخرج من جسدها الرجراج، لم تكن تسعى يومًا إلى إيقاف ضحكتها خشية المارة بين مكاتبنا المُتقاربة. تلبسُ حلية تعطي انطباعًا جيدًا بأنّها مُقتدرة، كان ما تلبسه غاليًا جدًّا إلا أنّه لا ينتظم بعضه مع بعض. الألوان مثلًا: تُظهرها عائمة وكأنّها في مهرجان، تضعُ مساحيق التجميل بوفرة وبشكل فوضوي، وقبل أن تفكر إحدانا في قول شيء ما، تُبادر نعيمة دومًا إلى التقليل من شأن ذوقها، كأنّما تفعل ذلك عمدًا، حتى ظننتُ في وقت ما أنّها تفعل ذلك عن قصد لنواسيها: «لا على العكس يا نعيمة، أنتِ متأنقة اليوم، أنتِ أصغر سنًّا، أنتِ أقلّ وزنًا من المعتاد»، ويبدو أنّ ذلك قمّة مُرادها. لا أدري لماذا لم يحصل أن قلتُ لها شيئًا طيبًا عن ثيابها وقصصها، أيضًا لم أقل لها شيئًا سيئًا، كنتُ أنظر إليها بتعجب وحسب، وأعرف جيدًا، فيما لو كانت لديها قصة ستمرُّ على مكاتبنا مكتبًا مكتبًا، وستقولها. في الغالب سيكون الأمر مُضجرًا ـ وعلينا أن نحتمل الإعادات. نعيمة تعيد القصص وتدخل قصّة في قصّة، وتُطيل في تفاصيل بلا

أهمية تذكر، ويبدو أنّ الجميع بصورة مفرطة يجدونها مُسلية، ولكني لا أتمكن من الإصغاء إليها. أشعر غالبًا بالتشويش، أفكر دائمًا في الأعمال الماكثة فوق مكتبي، أفكر في أقدام المدير تخطو لتفقُّد مكاتبنا كعادته الصباحية، أفكر في أنّ طيرًا سيشرب الماء ويلتقط الحبوب على إفريز نافذتي دون أن أنتبه له، أفكر في أولاد الجن يخوضون معارك طفولية فيطفح الغبار على صفحة الخواء الصيفي. والغريب أنها حتى في تلك اللحظات التي تستشعرُ ضجرنا أو ضجر إحدانا على الأقل، لا تمتنع عن إكمال القصص. تساءلتُ لحظتها لمَ هي دون غيرها تحدثُ معها قصص ومواقف وأشياء يمكن أن تُحكى على هذا النحو من التفصيل الدقيق؟ ثمّة أشياء تحصل مع الأخريات، ولكنهن لا يرغبن في التحدث عنها، ربما لأنّها الوحيدة بيننا غير المتزوجة، ولذا فهي تبدد وقتها في الأحاديث، أقول ربما.

أحاول جاهدة أن أكون موظفة جيدة ومُتفانية، كنتُ أأملُ أن يكتب مديري تقريرًا جيدًا عني، «أريد ترقية»، هذا أكثر ما أفكر فيه الآن، الحياة ستصبح أفضل لو أنني حصلتُ عليها. ولأنّ المدير شخص كثير السأم، وملول، ولا يفهم أكثر من لغة الأرقام، فكان ينبغي أن أجنبه دومًا رؤية نعيمة، لو رآها بصحبتي لما فكر أبدًا في ترقيتي، وكان ذلك يتطلب مني الكثير من الصرامة والتجهم، الوجه الناشف، الكلمات الواخزة، رفعُ الجريدة كحاجزٍ يفصل وجهي عن وجهها. ولكنها تبدو مُتبلدة، متبلدة أكثر مما قد يظن أحدهم، تجلس وتسرد القصص بداخل القصص دون توقف.

ظننتُ أنّها لن تأتي إلى مكتبي عقب أن كُسرتْ ساقها على سلم العمل، وبقيت لأشهر على كرسي مُتحرك. العاملات في المكاتب المجاورة ذهبن لزيارتها وأنا لم أفعل. لقد جمعن مالًا واشترينّ هدية، أساور من الذهب. لم أدفع ريالًا واحدًا رغم أنّ المغلف الذي جمعن فيه المال مرّ على مكتبي أيضًا. ليس بُخلًا، كنتُ لا أحتملها وحسب، لا أحتمل جسدها الرجراج وصوتها وضحكتها والقصص المتناسلة. ينمو بداخلي غضب مُتصاعد لمجرد رؤيتها.

ظننتُ أنّ عدم زيارتي سيشعلُ في قلبها حزنًا وستنقطع عن دخول مكتبنا. لكنها لم تنقطع. فور عودتها جاءت لزيارتي. كان لديها الكثير من الأحاديث حول ما فاتني جوار عرجها الملاحظ، تحدثت عن لحظة وقوعها وانكسار ساقها، وماذا قال الطبيب والخطأ الطبي الذي أوشك أن يقع، ومن ثم الحكاك الشديد الذي دفعها لأن تزيل الجبيرة قبل وقتها والالتهاب الذي أصابها لاحقًا، و... كانت تُعطلني بصورة مُخيفة ويبدو أنّنا سنبقى لأيام مُتوالية نتحدث عن الجبيرة والحكاك! لم أستطِع أن أطلب منها أن تكف عن المجيء إلى مكتبي. قلبتُ أوراقي لعدة دقائق، تشاغلتُ بهاتفي، نظرتُ إلى كوب الماء الكرتوني على النافذة لو كان قد جفّ من شدة الحرارة أم لا، فكرتُ في أنّ أبناء الجنّ ربما وحدهم الآن يرقصون خلف النافذة، لكن ذلك لم يكن ليوقف هديرها المتوالي.

في المطبخ المجاور، أعدُّ الشاي كعادتي وهنالك تتجمع العاملات من المكاتب الأخرى لتبادل الأحاديث. قالت إحداهن قبل أن

أخرج: «لديَّ لعبة»، وكنتُ لا أحب الانخراط ولا المشاركة معهن في أي شيء. تابعتْ قائلة: «كل واحدة منا تطلق صفة على الأخرى بكلمة.. كيف تراها وتشعر نحوها بكلمة واحدة فقط.» كدتُ أتجاوز الباب، ولكنهن هتفن باسمي في وقت واحد. لقد رغبن في بقائي وكانت لديَّ مشكلة وهي أنني لا أتمكن من التملص بسهولة، فأنا أقع فريسة سهلة لمن يقدم على دعوتي للقيام بشيء ما. لم تكن لديَّ مشكلة سوى أنّ نعيمة تجلس بكل صخبها بينهن، وكانت الأكثر حماسًا للعبة كما يبدو.

الجانب الشرير في داخلي رغب بشدة في إحباطها بطريقة ما. أراد أن يمعن في تمزيقها، في جعلها الأكثر ندمًا، ولا أجد مبررًا كافيًا لتبرير كراهيتي لها سوى أنّها تسرقُ لحظات اطمئناني القليلة، تسرقها بمعنى الكلمة وتجعلني متوترة على الدوام، وتجعل عقلي لا يفكر إلا في ابتكار طرق للخلاص منها، وكنتُ لا أتمكن من الشكوى لأحد. لقد نالت استعطاف الجميع ومحبتهم، لقد كانت في منتصف الأربعينيات وبلا زوج ولا أطفال. لم يحصل ذلك كما هو حال الفتاة التي تعمل في قسم التسويق، لأسباب تتعلق باختيارها، لأنّ الحياة برفقة رجل -من وجهة نظرها- حياة بلا معنى، بل لأسباب تتعلق بسوء الحظ، ولذا فعلى عكس فتاة التسويق كانت تستحق المزيد من المؤازرة، تلك المؤازرة كانت تثير غضبي، ذلك الالتفاف الجماعي للتربيت على كتفها، ذلك العطف المُتناسل كان يدفعُ بالحموضة لتدمير يومي.

انضممتُ إلى طاولة صغيرة دائرية جلسن إليها، وفوقها مِزق جرائد قديمة تمتصُّ ما يندلق من قطرات أكواب الشاي والقهوة. «ما اللعبة؟» قلتُ لهن. «هيا نقل بعضنا لبعض أشياء»، قُلنَ لي مُتضاحكات. «ولنحاول قدر الإمكان أن نكون على درجة من الصدق». لا أحب أن أهدر وقتي، ولكن اللعبة مُغرية كما يبدو. تحركتْ علبة المياه الغازية وأشار عنقها الرفيع إلى إحداهن، وكانت العاملة التي تعمل في قسم الأرشيف الأكثر خجلًا وتواريًا بيننا. وضعتْ يديها على وجهها، ثم بدأنا تباعًا نقول كلمات عنها، وصفتها فتاة المكتبة بكلمة «خجل»، بينما وصفتها فتاة التسويق بكلمة «جمال»، وعندما نظرنَ إليَّ جميعًا بفضول، لأنّ دوري حان لقول شيء، ارتبكتُ كثيرًا، ولا أدري لماذا قلتُ كلمة «ماء»، لم يكن وصفًا جيدًا بالنسبة إليهنّ، رغم أنّ حمرة شديدة ملأت وجه فتاة الأرشيف. كنتُ أفكر في العصافير التي لا تأتي لترتوي على إفريز نافذتي ولا أعرف السبيل الذي به يمكنني أن أدلها على نافذتي لكي تقاوم موتها اليومي. انتبهتُ فجأة إلى أنّ عنق الزجاجة تحركت وأشارت إليَّ. لم أجلس إلا فيما ندر برفقة فتيات العمل، ولذا لا أدري إن كُنّ يعرفنني بصورة غير مشوشة، ولذا لم تكن هنالك كلمات جاهزة، كن يرغبن في التفكير. لقد امتد الأمر إلى أكثر من دقيقة، فتزايد الفضول في داخلي عن الانطباعات التي تكونت لديهنّ عني. قالت فتاة التسويق بتحرج: «مشغولة»، ثم بررت من دون داعٍ: «أنتِ امرأة مشغولة، هكذا أراكِ». نعم أنا أفهم ذلك، لطالما كنتُ أتحجج بانشغالاتي. قالت فتاة الأرشيف: «غامضة»،

أهاه، تبدو هذه الكلمة مخرجًا جيدًا لكيلا تقول شيئًا ذا معنى دقيق، «غامضة» كلمة هُلامية نطلقها على الأشياء التي لا نملك تجاهها رأيًا مُحددًا. فتاة التحصيل قالت بعد بُرهة: كنتُ سأقول أيضًا بأنكِ «غامضة» بالنسبة إليَّ، وهكذا لم يتبقَّ سوى رأي نعيمة، وعلى نحو خاص كنتُ مُهتمة بما عساها تقول عني، ويبدو أنّها حسمتْ أمرها دون تردد فقالت: «محظوظة». لم أتوقع هذه الكلمة، قالت الكلمة بثقة تامة، الأمر الذي دفع الأخريات إلى قليل من الهمس.

أردتُ أن أستفهم عن سبب ظنها هذا بي، ولكن دارت رحى اللعبة مجددًا وأشارت إلى نعيمة، وشعرتُ لحظتها بأنني القناص الذي بات قيد أنملة من فريسته. ها أنا أرفع السهم إلى عيني الفريسة دون أن تفكر في التواري بعيدًا. وبدأتُ أفكر في كلمة، كلمة يمكن أن تصعقها، كلمة يمكن أن تجعلها تتوقف عن المجيء إلى مكتبي. قالت إحداهن عنها: «مرحة»، وهنالك من قالت كلمة «الضاحكة»، وكان الدور يقترب مني وقلبي يخفق بقوة، يدق أسرع من المعتاد. طارت الكلمات من رأسي ما إن نظرن إليَّ، ابتلعتُ ريقي ثم قلتُ دون تفكير: «جِنية»، متذكرة أولاد الجن. شهقتْ الفتيات بطريقة أخافتني، لا أعرف كثيرًا عن هذه اللعبة ولم أجرب قواعدها من قبل، لا أعرف إن كُنّ يستعملنها للإطراء أو للإيحاء بأشياء صادقة نشعر بها حقًّا، لا أعرف الأثر الذي تركته الكلمة التي قلتها مدفوعة بمشاعر مُتناقضة، وكما يبدو فإنّهُنّ لا يُناقشن أصلًا الكلمات التي يقلنها، يبقى أثرها مختفيًا في أعماق كل واحدة

منا، كلُّ ما شعرتُ به هو أنّ وجه نعيمة بدا مخطوفًا وبائسًا وكان ذلك أقصى ما أتمنى.

تتالت الأيام، لم يمرق عصفور ولا حشرة. تخيلتُ الجحيم الماكث في الخارج، الجحيم الذي يلتهم كل شيء، ربما التهم أولاد الجن أيضًا. غابت نعيمة عن مكتبي، بدا ذلك جيدًا. أنجزتُ كثيرًا من الأعمال، وضبتُ ملفات المدير، وطبعتُ عديدًا من الرسائل، وجهزتُ البريد ممهورًا بالعناوين التي ستذهبُ إليها، وأجبتُ على كل المكالمات دون استثناء، حتى تلك الأقل أهمية بالنسبة إلى المدير. المدير كان مبتهجًا بكل شيء عدا الرسالة التي تركتُها بجرأة على مكتبه أطلب فيها ترقيتي المؤجلة. خرج إليَّ ماطًّا جسده، واستخدم كثيرًا من تعابير لغة جسده. أعرف المدير جيدًا منذ ما يربو على السبعة عشر عامًا، فعندما يكون في حوزته كثير من الجُمل المُنمقة، أفهم جيدًا أنّ مرد ذلك هو رغبته في تصدير الرفض بأقل درجة ممكنة من الإيذاء.

ظننتُ أنني في غياب نعيمة سأصبح أكثر سعادة وأقل توترًا مما كنتُ. لكن الجفاف الذي يملأ الخارج كان يمتدُّ ليخترق قلبي.

كان هنالك وقعُ كعبٍ أعرفه جيدًا يقتربُ من باب مكتبي ويغادر، كعبٌ مُتردد، كان في إمكاني رؤية ظلاله من تحت الباب، ولأول مرّة أشعر برغبة في أن تدخل نعيمة، رغبتُ في أن تدخل حقًّا، وأن تحدِث ضجيجًا كبيرًا في مكتبنا الهادئ.

دخلت. كان وجهها مخطوفًا كما رأيته آخر مرّة، جلست حزينة

ومرتبكة والكلام غائب، صرنا مُتقابلتين، سألتني: «هل تعرفين لماذا قلتُ إنكِ محظوظة؟ ببساطة لديكِ كلّ شيء يجعلُ المرء سعيدًا، كل شيء». نظرتُ إليها في دهشة، فتابعت قائلة: «ولكن أرغب الآن في أن أعرف لماذا قلتِ عني جنية؟» تضاعف قلقي من دخول المدير في هذه اللحظة، إنّه لا يحب أن أتلقى زيارات خاصة بي. كررتْ سؤالها في حزن كثيف، ووجدتني أرتبك وأقول: «كلمة خطرت بذهني وفقط، دون تخطيط. أنا لا أعرف قواعد اللعبة حتى!»، «ولكنك قلتِ عن الأخرى بأنّها كالماء»، هكذا قاطعتني. حاولتُ أن أمسك أعصابي، ولم أستطِع أن أقول لها بأنني تقصدتُ مضايقتها حقًّا.

اختفت ضحكتها وانطفأت حيوية وجهها المعتادة، وامتلأت عيناها بالدموع دون أن أصدق ما يحدث: «كان في حياتي رجل مرح، كنا نتحدث لساعات طويلة من الليل، وعلى نحو ما كنا مُتفاهمين، وكان يقول لي يا «جنية!». نضحك ونفكر في أنّ الحياة ستكون فوق ما نتصور فيما لو أكملناها معًا، الرجل المرح كان يناديني بالجنية مُداعبًا، وكنتُ أنتظر أن يقول لي شيئًا إضافيًّا بمرور الوقت». اختفى صوتها وتحشرج وسط الدموع: «لكنه لم يقل لي شيئًا».

ثم تابعت: «ذات يوم قال لي إنّه يريد أن يقول لي شيئًا، فأرسل عبر الهاتف كلمة يا «جنية».. و.. كان ذلك آخر ما أرسل، وبقيتُ أنتظر لساعات ما عساه يرغب أن يقول، ولكني لم أعرف حتى اللحظة، لم أعرف أيّ شيء، كأنما لم يكن هذا الرجل سوى جنيّ

غامض»، هكذا قالت دون أن تثبت عينيها إلى عينيّ، فتضاعف توتري. فركتُ يديَّ، ثم قمتُ من مكاني ووجدتني أربتُ على ظهرها. لمستُ برفقٍ انحناءاتها الشحمية، ولم تكن لديّ كلمات تصلح للمؤازرة. ضغطتُ أكثر على أنصاف الدوائر المترهلة والمتعرقة فوق عمودها الفقري، فارتمتْ في حضني، بمعنى أدق احتضنتني وطوقت جسدي الضئيل، وسمحت لدموع ساخنة وسوائل مخاطية أن تنفذ إلى كتفي. تابعتْ: «عرفتُ لاحقًا أنّه مات بسبب كتابة رسالة لم تصل، لقد وقع من فوق الجسر». صمتتْ قليلًا، دعكت وجهها ودموعها وضغطتْ على طرفيّ أنفها المحمر بمنديلٍ ورقي: «بدا أنّ احتمالي لموته ممكن مع الأيام، ولكني لم أعرف ماذا أراد أن يقول لي، حدث كل هذا منذ ما يربو على ست سنوات، ولم يقُل لي أحد جنية منذ ذلك اليوم». أفلتتْ جسدي من بين ذراعيها، وبقيتْ سخونتها الغامضة تنملُ أطرافي. رفعتْ عينيها إلى عينيّ وغمرني حزن شديد من أجلها، صمتت قليلًا وهي تبتلعُ ريقها: «لا أدري لماذا أخبركِ بهذه القصة التي لم أقلها لأحدٍ من قبل». ثم خرجت ولم ألحق بها، بقيتُ في مكاني خائرة القوى.

خرجتُ من العمل أبكر من المعتاد، وسلكتُ الطريق الطويل إلى البيت، حيث أشجارُ السدر الكثيفة التي تقاوم الطقس الملتهب تصنعُ ظلالًا تحمي الكائنات الضعيفة. كنتُ أسير ببطء فاتحة نوافذ السيارة، سامحة للهواء الساخن بأن يلمسني، بينما سربٌ من طيور الدوري المُهاجرة تصدحُ بأغانٍ طنانة ذات جرسٍ عالٍ في أعالي

السدر، جرس يستمر لفترات طويلة دون أن يهدأ كأنّما تنبئ عن قيامة قريبة. ركنتُ السيارة جانبًا ومشيتُ على قدميَّ، رغم أنّ الهواء ظل مُحتفظًا بسخونته اللاهبة. أردتُ أن أسير دونما استعجال ودون أن ألهي عصافير الدوري عن نشيدها الأخاذ، بينما دموع نعيمة تُضيء على كتفي اليسرى.

فستان الشيفون

كنتُ أنوي رفع قبضة يدي في وجه الطبيبة المُتبلد، عندما قالت جُملتها الصادمة لجارتي، كأنّما تقول لها: «صباح الخير».

كانت تتمعن في شاشة تُظهر رحم جارتي المُمددة على السرير، قالت من دون انفعالٍ أو أسفٍ أو حتى التفاتة: «لقد فقدتِ حياة توأميكِ». لم ترفع الطبيبة عينيها الباردتين عن جهاز الكمبيوتر أعلى مكتبها، «عادة لا ينجح الأمر منذ المحاولات الأولى»، هكذا قالت. شعرتُ بغيظٍ هائلٍ يتصاعدُ كالحموضة، ووجدتُ الكلمات تفرُّ من رأسي، بينما كانت جارتي تسترُ بطنها بتعجلٍ، كأنّها لم يعد من اللائق أن ننظر إليه بعد أن خلا من نبض التوأمين.

بدا أنّ الطبيبة لا تفكر في أكثر من طابور المرضى الذين ينتظرونها في الخارج، بدتْ معتادة على أن تقول أخبارًا من هذا النوع لمرضاها. كان الصمتُ كثيفًا بيننا، لا نسمعُ سوى نقر أصابع الطبيبة على الكيبورد وهي تكتبُ التقرير وتترك وصفة الأدوية لنصرفها من الصيدلية. قلتُ بصوتٍ مخنوق: «لكنها دفعتْ مبلغًا

هائلًا من أجل هذه المحاولة.. لقد..»، ثم شعرتُ أنّني سأبكي بينما تمتمتْ جارتي بكلمات خافتة لم أسمعها على وجه الدقة.

في طريق الذهاب إلى العيادة، كنتُ أحدثُ جارتي عن نبض الجنين، عن ذلك الصوت الذي يغدو تحت الأجهزة، وكأنّ خيولًا جامحة تركضُ في براري شاسعة دون أن تهدأ. أقودُ السيارة والتفتُّ إليها بين الحين والآخر، لأخبرها بأمرٍ اختبرتُه قبلها، وستتعرف عليه بعد دقائق قليلة. كنتُ ألوح بيديّ بكثيرٍ من الانفعال، بينما تجلسُ جارتي بهدوءٍ ورقة مُصدرة ابتسامتها الهادئة. تمررُ يدها اليمنى على ذلك النتوء الصغير فوق بطنها محاولة تصديق ما أقوله لها. أعاود التحدث عن الخيول الجامحة التي تركض في داخلها، فتتدفق الدماء إلى وجهها الخالي من أي مساحيق، إلى أن تشوبها حُمرة تُعيدني دومًا إلى مشينا الطويل تحت أشجار الغاف بالقرب من فلج مزرعتنا في القرية النائية، وآنذاك وحسب، أشعرُ أنّ سعادتي مُكتملة.

خرجنا من البوابة الفخمة للعيادة. نزلتْ جارتي الدرج بخفة أكبر، على عكس الطريقة الحذرة التي دخلنا بها ونحن نتأملُ ثبات التوأمين.

ركبنا السيارة، فشعرتُ بدموعٍ لا نهائية تغزو عينيّ، وصوتي شابه تغيرٌ حاد، بينما بقيتْ جارتي مُحتفظة بحزنها في أبعد نقطة يمكن أن نتصورها. كان وجهها مخطوفًا لحظة تلقي الخبر، ثم ما لبث أن راق قليلًا. ظلتْ تنظرُ من نافذة السيارة إلى الأشياء التي

تعبر بسرعة. لم يكن يبدو أنّها تريد التحدث بشأن ما حدث، وكان هذا أفضل، إذ لم تكن في حوزتي كلمات تصلحُ للمؤازرة.

وصلنا إلى بيتي. ستمكثُ معنا ريثما يعود زوجها ليأخذها مجددًا إلى القرية. كنتُ أتساءل بيني وبين نفسي بامتعاضٍ شديد: «هل تبددتْ أسبابُ بقائها في منزلي؟»

جلسنا مُتقابلتين على الأريكة. لم يعُد أطفالي من المدرسة بعد، وزوجي ليس هنا على كل حال. حزنُها لم يكن يطفو على السطح بوضوح، الأمر الذي صعّب عليَّ مواساتها. أردتُ أن أذكرها بأنّها لم تتناول الحبوب التي صرفتها لها الطبيبة، ولكني قررتُ أن أتظاهر مثلها بأنّ الأوضاع يمكن أن تذهب إلى الأفضل، فما دام الجنينان لم يسقطا بعد، فلمَ عساها تتناول الأدوية التي تُساعد على إسقاطهما! آنذاك أدركتُ أنّها تتشبثُ بالأمل، ماذا لو عاد النبض إلى قلب الجنينين. ماذا لو دبتْ الحياة فيهما، ربما تكون الطبيبة على خطأ وأنّ قلبيهما لم يتوقفا بعد عن النبض. ربما تكون المشكلة في الجهاز اللعين. تبين لي في ذلك الصمت العسير أنّه يتوجب عليّ أن أشاطرها الأمل. القليل من الأمل وحسب ليستمر بقاؤها في بيتي.

كان لا بد أن أدعوها إلى تناول شيء ما. تطلَّب منها الأمر أن تفكر لدقيقة كاملة، ثم قالت كمن استيقظ فورًا من غيبوبة: «شرابٌ بارد، عليَّ أن أتجنب ما يمكن أن يضرّ التوأمين». هكذا ذكرَتهما وكأنها تستمعُ لركض الخيول بداخلها، وكأننا لم نتلقَّ خبرًا مُفزعًا منذُ نصف ساعة!

اختلط نشيجي المتقطع بصوت الخلاط المرتفع في المطبخ، وأنا أحضر العصير. شاهدتُ بين دموعي الكثيفة قطع الموز تُفتتُ نفسها بسخاء لتمتزج بالحليب والثلج. جففتُ دموعي وغسلتُ وجهي وسكبتُ لنا العصير البارد. بقينا متجاورتين لا يصدرُ عنا أيُّ صوت. لم يكن هنالك سوى صوت المُكيف ينجزُ مهمته الجبارة بصبرٍ هادئ، في وجه القيظ الذي حبسنا دون نسمة رطبة.

ارتشفتْ القليل من العصير وظلتْ شاردة. في ذلك القرب بيننا انتهبتُ للتصبغ اللوني الذي نال من وجنتيها، وإلى أصابع يديها بالغة النحافة، وأظافرها المقصوصة أكثر مما ينبغي، ومجددًا تلعثمتُ ولم أجد كلامًا أقوله لها. رفعتْ رأسها: «أنا فقط أفكر، كيف سأخبر زوجي بالأمر؟» شعرتُ برغبة في أن أقول لها: «فكري الآن في خسارتكِ أنتِ»، ولكن آنذاك لم تكن جارتي تفكر في شيء سوى الطريقة التي تقول بها الأمر لزوجها.

أردتُ أن أكون صديقة جيدة وودودة ولديّ كلمات جيدة تقال في ظرفٍ كهذا، ولكن اللامبالاة بشأن التوأم وانشغالها بأمر الزوج وأسرته وما ينبغي أن يُقال، دون أن تمنح نفسها فسحة للحزن، بدا لي مسألة غير عادلة ألبتة!

لم تكن المحاولة الأولى. سبق أن كانت هنالك محاولات كثيرة، لكنها المرة الأولى التي تنغرسُ فيها البويضة في جدار الرحم، ويُظهر فحص الحمل خطين متوازيين. أيُّ معنًى للسعادة تملكنا فور سماع الخبر؟ كان عليها أن لا تبذل مجهودًا، وأن تبقى هادئة، وأن لا تصعد

الدرج، وأن تأخذ إبر المثبتات بصورة مستمرة. الأمر الذي تطلب مكوثها في مسقط، حيثُ لا أقرباء لها خارج القرية.

لا قرابة تجمعنا أنا وهي، أكثر من الجيرة التي استمرتْ بين عائلتها وعائلتي، منذ عقودٍ طويلة وحتى اللحظة. إلا أنّ ذلك لم يكن ليمنع مبيتي في بيتهم أو مبيتها في بيتنا، لم يكن ليمنع حروب وسائدنا وأسرارنا الليلية.

لكن قد تبدو الجيرة شأنًا تافهًا بالنسبة إلى زوجها الذي رفض في البداية مسألة إقامتها عندي، لا سيّما أنّ زوجي مسافرٌ للدراسة في الخارج، وزياراته متنائية ومتباعدة، إلا أنّه لاحقًا وجد أنّ هذا سببٌ أدعى إلى موافقته لا رفضه. الأمر الآخر الذي رجّح إقامتها عندي كان يتعلق بالعيادة التي يذهبان إليها بشكل دوري، التي بالكاد تبعدُ ثلاثين كيلومترًا من بيتي، كما أنّي أقود سيارة، ويمكنني تدارك أيَّ حدث طارئ قد يلمُّ بالتوأمين. تلك الأسباب وحسب هي التي جعلت زوجها وعلى مضض يشعرُ بجدوى تواجدها في بيتي.

لطالما كان مُنتقدًا لي. المرأة التي تعيش في مسقط برفقة طفلين وعاملة منزل. «أيُّ نوع من الأزواج هذا الذي يتركُ زوجته ويذهب للدراسة؟!» كان يشعرُ بشيء من الازدراء تجاهي. الحقيقة أنّه يومًا لم يقل لنا شيئًا من هذا القبيل، ولكن يمكنني تخمين الأمر بيسر، فكيف لي أن أفسر شُح زيارات صديقة العمر لي؟ لطالما كان يتحججُ ويرفضُ دعواتنا لأسبابٍ غير كافية بالنسبة إليَّ، لا شيء غير الازدراء يمكن أن يُبرر تصرفاته الشائنة تلك.

جهزتُ غرفة الضيوف ودورة المياه. كل شيء من أجل أن يصل التوأمان بأمانٍ إلى الحياة، «القليل من الجهد، الكثير من الطعام الصحيّ، الكثير من النوم»، هكذا كنتُ أقول لها كل يوم.

أعود متلهفة من عملي لأعرف أخبار التوأمين، ما يمكن تجهيزه لهما. وتقول جارتي دومًا: «ما زلتُ في الشهر الثاني». أفتحُ لها الستائر: «دعي الضوء يدخل، الكثير من الضوء، ينبغي ربطهما بالحياة من الآن».

لم يكن لدى جارتي وزوجها قصّة حب، كان زواجًا تقليديًّا. أمّا الحبّ فكما يقول الجميع لنا: يأتي لاحقًا. كنتُ أختلف عنها، كنتُ أريد قصّة حبّ جارفة، ولطالما كان وجهها يحمر وتتغضن رقبتها ما إن أخبرها عن رغباتي. كانت تمتلئ بالإعجاب بي وتؤيدني دومًا ولا تلومني على شيء، رغم أنّها يومًا لم تقُل إلا جملة واحدة بصيغ مختلفة، من قبيل: «إن شاء الله، سأفعل». لم تقل «لا» لأيّ شيء، حتى لتلك الأشياء التي نغّصتْ حياتها.

كنتُ أرغب في كسر رأس والدها عندما رضختْ له وصدقت أنّ التعليم المختلط سيفسدها. أردتُ أن أدفعها إلى أن تذهب معي لنكمل أوراقنا معًا في الجامعة، لكنها كانت تقول بإذعان قاتل: «والدي يعرف كيف تؤول الأمور دومًا». أفلتُّ يدها وتركتها، وقررتُ أن مجرد التحادث معها سيجلبُ لي الحزن. كنتُ أثور في داخلي، قلتُ بأننا لن نتحادث مجددًا. ذهبتُ إلى الجامعة، وتضاعف رصيدي من الصديقات، ولكن لا أحد مثل جارتي وصديقة

عمري. ظلت تنتظرُ عودتي إلى القرية لأحكي لها شيئًا عن الأحداث الأسبوعية، تنظرُ إليَّ كما لو أنّني مسرح كبير، وأنا أحكي لها أشياء بين الحقيقة والخيال، فتصدق ولا تعترض أبدًا، ولا تلوم رغم طيشي وجنوني، تحملقُ إليَّ بنظرتها الحالمة تلك، فأجدُ دومًا ما يستحق أن يُحكى من أجلها.

نتمشى أنا وهي بطول مزرعة جدي ونحكي، وعلى عكسي لم يكن لديها ما تحكيه، القليل وحسب. تملكُ من الصمت ما يجعلني مندفعة في الكلام إلى أن قالت مرّة: «أبي قال سأتزوج»، وهنا وقفتُ ونظرتُ إليها: «يا الله أنتِ صغيرة. أنا وأنتِ لدينا كثير من الوقت لنعيش». نظرتْ إلى كثافة البرسيم أمامنا وقالت، من دون أن يشوب صوتها اهتزازٌ أو توتر: «قال أبي لا يوجد ما يؤخرني، لا دراسة ولا يحزنون». شعرتُ لحظتها بالحزن وبانقباضٍ كبيرٍ في قلبي.

نقطعُ أنا وهي طريقًا طويلًا بين أشجار النخيل، ولا يقطعُ صمتنا سوى صوت خرير الماء في الساقية أو عصافير الدوري التي ارتبط ضجيجها، وهي تعود إلى أعشاشها في أشجار الغاف، بموعد أفول الشمس وضرورة عودتنا إلى البيت.

قبل أن نودع بعضنا بعضًا قالت بأنّها لم تتعرف على خطيبها بعد، ولم تنصت إلى صوته، وأنّ والدها يرى ذلك غير ضروري، لقد سأل جيدًا عن أخلاقه. شددتْ كثيرًا على كلمة أخلاقه وظلت تنتظر مني تعليقًا أو تهكمًا كما اعتادت مني، ولكني لم أعلق. تركتها من دون أن نتصافح حتى!

طوال السنوات الماضية احتفظتُ بمنظور كئيب لحياة جارتي. أتصورها دومًا وهي تقول: «إن شاء الله. حاضر، سأفعل»، وأُصابُ برغبةٍ في التقيؤ.

انتظرتُ رجلًا أقع في حبه إلى درجة الخبل، ولذا بدا جليًّا أن أرفض كل الذين تقدموا من أبناء القرية. تزوجتُ برجلٍ جذره يعود إلى القرية، لكن حياته في مسقط. ظننتُ أنّه سيكون أكثر تحملًا للفوضى التي أحدثها، ولكن على كل حال، لم تذهب حياتي إلى مكان أفضل. أنا وزوجي نتشاجر بصورة دائمة، والأولاد يستمعون إلى صراخنا دومًا، أقول لنفسي بحسرة: «أنجبنا أولادًا ليسمعوا صراخنا». حصل الأمر بالتدريج، أُصبنا بالفتور، ولم يعد شيءٌ قادرًا على إيقاظ الحرارة في حياتنا. انصرف كلّ منا في طريق، رغم أننا تحت سقف واحد. في الماضي كنتُ أتحلى بالأمل: «سوف يتلاشى الفتور، سنتوهج بطريقة أو بأخرى، كالليالي الأولى التي وقعنا فيها في الحب!» ولكن تلك الارتعاشات كانت تصير أكثر نُدرة بيننا بمرور السنين.

جارتي لا تلوم، لا تنهر، لا تغضب، فقط تمتلئ بالدهشة. وعلى كثرة الحكي الذي دار بيننا طوال الشهرين المنصرمين في بيتي، لم أجرؤ على أن أقول لها شيئًا بشأن زوجي، وهي الأخرى لم تكن تجرؤ على أن تنكأ جراحًا من هذا النوع، ولكني كنتُ أخمنُ أننا مُتعادلتين، الأمر الذي يُشعرني بطريقة أو بأخرى بالعزاء.

زوجي لم يكن يرى الفتور الذي أتحدث عنه، كان يرى حياتنا مستقرة وتمضي على نحوٍ جيد. لم يكن يتذمر من أي شيء، ولا

يتحدث في أيّ شيء. كان مُطمئنًا، ذلك الاطمئنان الذي يُحرض غضبي وصراخي الدائم، الغضب الذي دفعه إلى أن يعقد حقائبه مُندفعًا إلى أبعد بقعة من العالم.

في ليلة من الليالي، حصل أن نكأتْ جارتي جُرحها، الأمر الذي دفعني إلى سعادة لم أشعر بها، منذ أن ركضنا في حقول القرية ونتائج الثانوية العامّة بين أيدينا، «لا يحب الفساتين، لا يحب الخروج كثيرًا، كان علينا أن نجمع المال من أجل الطفل». هكذا فتحتْ جارتي قلبها لأول مرّة. طوال السنوات التسع كانا يعملان دون توقف، هو سائق لحافلة مدرسة، وهي بائعة للبخور. لم يفعلا يومًا أيّ شيء، لم يتنزها أو يُسافرا ولم يذهبا إلى مطعم، لم يصرفا مالهما في أيّ شيء إضافي، لا الملابس ولا السيارات ولا أي شيء، لم يُغيرا طلاء الغرفة التي سكنا فيها في بيت أمّه وأبيه وإخوته، لم يشتريا فراشًا جديدًا لسريرهما، اكتفيا بفراشٍ واحدٍ منذ ليلة الدخلة، تغسله جارتي وتجففه تحت الشمس ثم تُعيد فرشه في المساء نفسه، لا شيء على الإطلاق. كان هنالك هدفٌ واحد وحسب، أن يكون هنالك طفل لكي تُعاش الحياة كما يأملان.

على نحوٍ غامضٍ كنتُ أدنو من خفقانٍ مُفرحٍ بداخلي، وآمل في أعماقي أن تُصَدّر جارتي احتجاجًا مُتلاحقًا على حياتها المُفزعة، «الحياة مؤجلة من أجل طفل.. يا الله» هكذا قلتُ لها لأدفعها إلى مزيدٍ من الشكوى. بذلتْ جارتي جهدًا مُضنيًا لتؤكد تفهمها لدوافع زوجها وأنّه يفعل ذلك من أجلها أيضًا، ولكنني لم أكن لأصدق

دفاعها اللاحق، فأنا أفهم ما كانت تُداريه. لم تشأ أن يُفضح أمره، لم تشأ أن يبدو رجلًا مُقرفًا في عينيّ. «لا تقلقي يا عزيزتي، كلُّهُم هكذا»، قلتُ لها وأنا أربتُّ على ركبتها المجاورة لي، ولم أكن لأسمح لها بأيّ حال أن تبرر فظاعته لي.

أعرفُ قصصًا تُحكى عن زوجها في نمائم القرية، لم تأتِ جارتي يومًا على ذكرها. من قبيل أنّه كلما فشل مجيءُ الطفل، اتخذ طريقه إلى الصحراء مخمورًا وغارقًا في حزنٍ لا نهائي. تقول جارتي في هذا الشأن: «كم يحبون تأليف القصص عنّا!»، الحقيقة أنه لم تجمعني بزوجها مائدة طعام ولا أحاديث ولا حتى اتصالات، ولكنني أود بشغفٍ تصديق القصص التي تُروى عنه، وتفضحُ خواءه وضموره، هكذا أشعرُ بالارتواء، وكأني منذ زمنٍ بعيدٍ أتخذه عدوًّا لامرئيًّا!

صعدتُ إلى غرفتي وملأتُ الحوض، وبقيتُ لساعة كاملة أغمرُ نفسي بالماء، وأتوهجُ بسعادة تنبتُ من مكانٍ خفي في جسدي.

تفضلُ جارتي أن تنعزل مساءً في الغرفة التي أعددتها من أجلها. تقول بأنّها تود أن تجري اتصالًا مُهمًّا. لم أكن مُهتمة في البداية، ولكن عندما تكرر الأمر لليالٍ متواصلة، شعرتُ بالحنق، لا سيّما عندما أكون قد حضّرتُ طبقًا من الحلويات، أو جهزتُ فيلمًا لنشاهده معًا. يستمرُّ الاتصال إلى ما يربو على الساعة يوميًّا، دون أن أجرؤ على سؤالها. يأكلني الفضول والحسرة عندما تزهد في كلّ مقترحاتي المسائية، وتنزوي في غرفتها المجاورة. في ليالٍ لاحقة

لم أكن أحتمل غيابها ولا الغليان المتصاعد في داخلي، ولذا حصل وأن فاجأتها مراتٍ عديدة بدخولٍ غير متوقع، وسألتها عن أشياء تافهة دون أهمية تذكر. كانت تتوهجُ بحُمرةٍ ويختنقُ صوتها بعيدًا، الأمر الذي ضاعف استيائي.

وفي ليلة من الليالي التي انتظرتها طويلًا بعد أن أعددتُ الشاي المغربي والبسبوسة، ودون طرقٍ لباب غرفتها، دخلتُ وبدأتُ بفتح الخزانة الجانبية. أصدرتُ ضجيجًا مُتعمَّدًا، وكنتُ كمن يبحث عن شيء. الأمر الذي أصابها بالحرج وكتم صوتها. آنذاك سمعتها وهي تنطق اسم زوجها وتغلق المكالمة. «هل كان زوجكِ؟»، سألتها. رفعتْ عينيها بحرج: «نعم». فتحتُ أدراج الخزانة تباعًا وتناولتُ مناشف مطوية: «الخادمة الغبية لم تُغير مناشف الحمام! لطالما قلتُ لها: المناشف ينبغي أن تُغير نهاية كل أسبوع»، قلتُ بنبرة مرتفعة وأنا أحدثُ قلفعة مزعجة. ضمتْ جارتي ساقيها إليها تحت الملاءة، ولم يصدر عنها أيّ صوت أو حركة، بينما ضممتُ أنا المناشف بين يديّ، ثم تركتها على طرف سريرها، «أعتذر.. للمقاطعة.. أنا لا أعرف كيف أجعل العاملة تنجزُ عملها بدقة دون أن اضطر إلى مراقبتها على هذا النحو»، قلتُ بارتباكٍ عارمٍ وعدتُ لأغلق الأدراج. «لا بأس.. هل أساعدك في شيء؟»، قالت بصوتٍ خافت. «ألم يكن زوجك أيضًا الذي اتصل في الليالي السابقة؟»، سألتها دون تفكيرٍ، وسرعان ما ندمتُ على طرحي السؤال على ذلك النحو من الفجاجة. تورَّد خداها: «يتصل ليطمئن و..»، قالت. درتُ في الغرفة ذهابًا وإيابًا

أكثر من مرة، دون أن أفسر تصاعد الغيظ بداخلي. تنفستُ بعمقٍ وجلستُ على طرف السرير، ودون أن أنظر إلى عينيها قلتُ: «لا بدّ أنّه متشوق إلى الطفلين، يتغير الأزواج بادئ ذي بدء لنبأ تحولهم إلى آباء، ثم يغدو الأمر أقلّ حماسة». رجعتْ جارتي بظهرها إلى الوراء، وانكشف قميص نومها الفضفاض ذي الأكمام الطويلة والأزرار البارزة: «لا يحبذ زوجي النوم دون أن نتحادث.. لقد اعتدنا ذلك». وقفتُ وأنا أقضم ظفر سبابتي بقواطع أسناني، وضحكتُ تلك الضحكة الفاترة: «إنه الاعتياد! بعض الأزواج يعتادون على..»، وبدأتُ أحركُ يديّ أكثر مما ينبغي، «أقصد يدخلون العلاقة في روتين يعتادون عليه.. أليس كذلك؟». حملقتْ إليَّ متفاجئة: «لا أفهم ماذا تقصدين!». وهنا بدا لي أنّ حوارنا سيذهبُ إلى مزلق كبير، ووجدتني أدفع بيديّ أمامي وكأني أصدُّ هجمة مرتدة: «لا شيء، لا شيء ألبتة. تأخر الوقت، سأذهبُ إلى النوم. أراكِ غدا». اقتربتُ منها وانحنيتُ وقبلتها على خدها برقة.

في سريري بكيتُ طويلًا وتناولتُ بعض الأدوية التي وصفها لي الطبيب من قبل. ظلّتِ الدموع تنزلقُ، لتحفر بسخونتها خديَّ إلى أن غلبني النعاس، ونمتُ على سريري الكبير والفارغ.

في اليوم التالي جلسنا أنا وجارتي متقابلتين، بعد أن تأكدتُ من صعود أبنائي إلى حافلة المدرسة. اتصلتُ بمدير عملي وأخبرته عن عارض صحي ألمّ بي ومنعني من الذهاب إلى العمل. كان ينبغي أن أكون جوارها، وعندما لم يكن ثمة ما نفعله، وقد فرغنا من تناول

الإفطار، أردتُ أن أخترع شيئًا ما، شيئًا يُخرجنا من صمتنا. «لديَّ فستانٌ ضيقٌ بعض الشيء، فستانٌ أزرقٌ وجميل. لم أرتدِه بسبب تغير مقاسي بعد الإنجاب، ولكنني أخمن أنّه يُناسبكِ»، هكذا قلتُ. ابتسمتْ جارتي تلك الابتسامة المليئة بالامتنان، ودخلنا إلى غرفتي. أظهرتْ قَصّة الفستان خصرها النحيل جليًّا، وكسرات الشيفون التي انسابت فوق ساقيها جعلتها تبدو غير ما أتصور. «لقد أزاح الفستان سنوات من عمركِ! تبدين أصغر بكثير»، قلتُ لها قولي ذاك.

لم ترتدِ جارتي يومًا أيّ فستانٍ يُبدي جسدها بذلك الوضوح، ولا حتى في الأعراس والمناسبات. لطالما كانت تتخفى تحت طيات الثياب الفضفاضة. نظرتُ إليها وقلت: «سوف يُفتن زوجكِ بكِ». احمر وجهها النحيل شديد السُّمرة، ثم رفعتْ شعرها بالغ السواد أعلى كتفيها وصنعتْ به كعكة، فتبدى لي عنقها الدقيق الذي لم أره منذ طفولة بعيدة، وعظمتي الترقوة. «لقد طلب مني ألا أرتدي فساتين من هذا النوع»، قالت جارتي. قلتُ لها وأنا ألكزُ ذراعها المكشوف: «إلبسيه له هو». قالت: «هو لا يحبذ ذلك حتى فيما بيننا، لديه تصورات أنّ...»، واختنقتْ الكلمات في حلقها. ربتُّ على كتفيها، ثم جلسنا أنا وهي على طرف السرير، تلعثمتْ ولم تنظر إلى عينيّ: «لا تغضبي مني، هو يقول: الفتياتُ سيئاتُ السمعة يلبسنَ أشياء كهذه من وجهة نظره»، ولفرط العبثية وجدتني أنفجر ضاحكة، ضحكتُ حتى طفرتْ دموعي. قلتُ لها: «ما رأيك أن

نضع أحمر الشفاه، لنرَ كيف سيبدو عليكِ؟». لم تكن مُتحمسة ولم تكن رافضة أيضًا. أغمضتْ عينيها وسمحتْ لي أن أمرر أحمر الشفاه القاني فوقهما ببطء، بعد أن رسمتهما لها بقلم شفاهٍ داكن. طلبتُ منها أن تبقى كما هي ثابتةً مُغمضةَ العينين لا تنظر إلا إلى داخلها. رسمتُ لها حاجبيها المبعثرين الذين لم يسبق لها حفّهما بالخيط من قبل، ثم أخذتُ أطبطبُ أعلى وجنتيها بالكريم لأخفي تصبغهما اللوني. أكادُ أجزم أنّها يومًا لم تدخل صالونًا تجميليًّا. خيوط الشمس المُتسللة من ستائر غرفتي أخذتْ تصنعُ خطوطًا متقاطعة فوق وجهها المستسلم ليديّ. رأسها مائلٌ إلى الوراء، بينما تسندُ جسدها بمعصميها الهزيلين على طرفيّ السرير. رسمتُ بالكحل نصف قوسٍ فوق جفنيها، وما إن فتحتهما، ونظرنا بعضنا إلى بعض من ذلك القرب، حتى تبدت لي امرأة أخرى.

ناولتها المرآة وبدت متعجبة من شكلها. تناولتْ منديلًا، ولكني طلبتُ منها برجاء أن تُبقي وجهها كما هو ولو لساعات قليلة. كانت مختلفة وملامحها أشدّ وضوحًا وجمالًا، وسُمرتها الداكنة تشي بحرارة عميقة. لوحتْ بيديها كأنها ستقول شيئًا، لكن هاتفها رن. كان زوجها هو الذي يتصل. شحب وجهها: «ما عساي أقول؟». ووجدتني أضطربُ معها. كانت تنظر إليَّ بضعفٍ مُحبذ. تريدُ أن أنقذها. كان الأمر مُغريًا بالنسبة إليَّ في موقفٍ حاسمٍ كهذا. «قولي له: كل شيء على ما يرام». ترددتْ وقالت: «لكن الطبيبة قالت..». همستُ إليها بحزم: «ما يزالان في داخلكِ لم تفقديهما بعد. أنتِ لا

تكذبين». أخذتْ نفسًا عميقًا ثم عضت شفتها السفلى غير منتبهة للون القاني فوقهما. تركتها وخرجتْ.

تحدثا إلى ما يربو على عشر دقائق. توترتُ كثيرًا: «ماذا عساهما يقولان كل هذا الوقت؟». خرجتْ جارتي من الغرفة بهدوء، يدها على بطنها، والألوان تضجُ بوهجٍ فوق سُمرتها، رغم أنّها أسدلت غطاءً فوق رأسها لتغطي شعرها وكتفيها تحسبًا لدخول أحدهم: «لستُ مرتاحة»، قالت، ووجدتُ صوتي يرتفع: «لماذا كل هذا الذعر؟ أنتِ لم تكذبي عليه، وإن كنتِ لم تقولي له الحقيقة بعد، ففيما كنتما تتحدثان؟». بدا الحرجُ واضحًا عليها: «إنّه يحبُّ أن نتحدث وحسب».

ثار الغضبُ في داخلي، فجلستُ على الصوفا وبدأتُ تقليب محطات التلفاز، وجسدي ينتفض دون أن أدرك سبب ما أنا فيه من غيظ. جلستْ جارتي جواري مُترددة، تقبضُ الكلام خشية أن يهرب منها، «سيأتي هذا المساء»، قالت بصوتٍ هامس. بدتْ آنذاك كامرأة مُشتاقة ومُتلهفة، وبدا أنّ افتراقها عن زوجها ليس بالأمر الهين عليها. «ظننتُ أنكِ سعيدة هنا؟» قلتُ لها برفق. «أنا سعيدة جدًّا ولكن..»، قالت. وهنا التفتُّ إليها بحدة من دون أن أجد تفسيرًا ملائمًا لتصرفي، أمسكتُ بكتفيها الهزيلتين بين يديّ: «ستعودين إلى حياتكِ الشاقة. هذا ما تريدينه، ستتركين كل هذا الرخاء الآن؟!». ثم تداركتُ الأمر وأنا أشدُّ أكثر على ذراعيها: «يمكن أن نحافظ على الطفلين، من يدري لم يسقطا بعد فعليًّا!

يمكنكِ البقاء هنا». نظرتْ إليَّ جارتي لأول مرّة منذ تعارفنا نظرة لومٍ جادة، وآنذاك كنتُ أغلي لأبعد ذرة في كياني، كأن أحدهم يسرقُ مني شيئًا لطالما أردتُ الاحتفاظ به لنفسي. وجدتني أقول لها بنبرة حادة مجددًا: «لطالما كانت حياتكِ وراءكِ. لم تفعلي شيئًا من أجلكِ. حتى الطفلان لم يكونا من أجلكِ، بل من أجله هو!». تجلتْ شراسةٌ لم أخبرها من قبل في عينيها الغاضبتين، شراسةٌ أفزعتني إلى درجة لا يمكن تصورها، وتحت طبقات المكياج الذي تضعه لأول مرّة، ظهرتْ قسماتُ وجه جارتي أكثر حدّة من أيّ وقت مضى.

أخذ صدرها يعلو ويهبط بوتيرة مُتسارعة تحت فستان الشيفون، وكأنها ستبكي أو سيغمى عليها، بينما كانت حبيبات العرق تتراقص أعلى جبينها. سارعتُ إلى المطبخ لأحضر لها عصير ليمون. كنتُ أعصر كلّ غضبي مع كلّ ليمونة. لا أدري ما الذي أوصلنا إلى هذه النقطة، «يمكننا تفادي الأمر»، هكذا حدثتُ نفسي، وأخذتُ نفسًا عميقًا وعدتُ إليها.

كانت جارتي واقفة، في نفس النقطة التي تركتها فيها في الصالة. دموعٌ حارة غزت وجنتيها، فسال الكحلُ وخرجت الحُمرة عن الخط الذي رسمته لها، أمّا فستان الشيفون ذو الكسرات فقد خالطه احمرارٌ داكن.

الغِبطة والتفاهة!

الصفعة التي تلقيتها ظُهر اليوم من يد أمّي تركتْ احمرارًا لا تُخطئه عينٌ على خدي.

لم تكن صفعة حاقدة أو مُؤنبة، كانت حركة لا إرادية، تُلازمها باستمرار وتصدرُ عنها كلّما فاجأها أمرٌ ما. لم يكن من السهل عليها أن تستوعب حدوث طلاقٍ بيني وبين الرجل الذي عشتُ معه لأعوام ليست بالقليلة. رفعتُ وجهي قليلًا، ولم أتمكن من لمس خدي بأطراف أصابعي لشدة ما كان يحرقني. أومأتُ برأسي مؤكدة لها ما سمعتْ مني، بينما أسحب نشيجي إلى الداخل: «حصل فعلًا». لطالما كانت أمّي مُغرمة بكلّ الأشياء التي تبدو على درجة من المثالية، ولذا أصرتْ على وجود خطأ ما في الأمر. تركتْ كراسات طلاب المدرسة، التي كانت بصدد تصحيحها، في فناء البيت الخارجي. لملمتْ أوراقها وملفاتها بينما هواءٌ باردٌ يلفحُ وجهي، ويُحاولُ رفع غطاء رأسي، الذي لم أثبته جيدًا بالدبابيس ككل مرّة. أُمسكُ الغطاء بيدٍ، وبيدي الأخرى أمسكُ حقيبةً صغيرةً وضعتُ فيها قليلًا من

ملابسي. ولجتْ أمّي في غرفة المعيشة، وضعتْ كراساتها بشكلٍ مُنتظم على منضدة جانبية. كنتُ خلفها تمامًا كامرأة غريبة تنتظرُ إذنًا بالجلوس. جلسنا على الأرض مُتكئتين على الوسائد المزركشة فوق سجادٍ احتفظت به أمّي نظيفًا منذ طفولتي البعيدة. بدتِ الغرفة مُظلمةً بستائرها الداكنة، بينما كان النهار الشتوي في الخارج في منتصفه. كنتُ أكبر إخوتي الذين ما زالوا على مقاعد الدراسة، وأمّي تبدو كربانٍ لمركب العائلة، تتولى كلّ صغيرة وكبيرة بعد وفاة أبي.

اعتدلتْ في جلستها وبدا حزنٌ عميقٌ في عينيها. «لمَ أنتِ مهتمة ببقائي معه إلى هذه الدرجة؟»، قلتُ لها. تحركتْ يداها لا إراديًّا مجددًا، فأشحتُ بوجهي بعيدًا. لكنها هذه المرة صفعت ركبتيها، ثم قامت إلى المطبخ القريب، تغلي الشاي فوق النار بتوتر غير مألوف. سمعتُ صفير الإبريق، لكني بقيتُ في مكاني هادئة، أنتظرُ أن نتحدث معًا. عادت وجلست جواري، فرجعتُ بظهري إلى الوراء، واستندتُ إلى الوسائد المزركشة مجددًا، طويتُ ساقيَّ في بطانية مُخططة بالأزرق والبنفسجي، كانت مطوية قبل بُرهة. حركتْ أمّي ملعقة السكر البني في الكوب الأول دون أن ترفع عينيها ودون أن تقول شيئًا، ناولتني إياه، ثمّ كررت الأمر مع الكوب الثاني.

تلفتُّ حولي وانتفضتُ قليلًا: «ليلة باردة». قالت أمّي بحزم: «كنتُ أسمعُ قصصًا جيدة عنكما من الناس طوال الوقت، الفتاة العاقلة والشاب الطيب». تركتُ الشاي جانبًا، وضممتُ يديّ تحت

البطانية، قابضة على أصابع قدميّ الباردة من وراء الجوارب: «هذا ما يفعلونه دائمًا». ضغطتْ بيديها على جانبي كوب الشاي، لتستمد حرارته دون أن تنظر إلى وجهي: «لم يكن يبدو بينكما أيُّ شيء يشيرُ إلى انزعاج ما، كان رجلًا جيدًا». تنفستُ وضممتُ جسدي إليَّ أكثر: «نعم. لكني لم أعد أود الاستمرار بصحبته». رفعتْ عينيها ونظرتْ إليَّ بقسوة: «كانت حياتي برفقة والدكِ مليئة بالحلو والمر أيضًا، ولكني بقيتُ برفقته». ارتخى جسدي قليلًا، تناولتُ كوب الشاي مجددًا وبقيتُ أضغطُ عليه بكلتا يديَّ ولا أرتشفُ منه شيئًا: «لا يمكنني أن أكون أنتِ». بدا وكأنّها تبحثُ عن شيء، ثم وجدتها توصلُ المدفأة بالكهرباء. شاهدتُ الأسياخ الرقيقة تتوهجُ بالحُمرة. بات وجه أمّي الآن أكثر وضوحًا مما كان. هدأتْ قليلًا ورفعتْ رأسها ونظرت إليَّ. كانت تنتظرُ القصّة بشكل واضح ودقيق. كنتُ على يقين بأنّ القصّة عندما تُروى بشكل جيد، ستغني عن كل التبريرات اللاحقة.

لكنني لم أكن أعرف من أين ينبغي أن أبدأ، كلُّ ما سأقوله سيبدو لأمّي تافهًا أمام المشقات التي تحملتها بصحبة أبي. لكنها أنقذت حديثنا من الصمت قائلة: «أنا ووالدكِ كنا نثير الغِبطة في نفوس الناس، هل تعرفين شيئًا عن الغِبطة؟ كنا ندفعُ الناس ليشعروا بإمكانية حياة اثنين معًا إلى آخر العمر دون حروب، الجميع كان ينظرُ إلى الودّ الذي بيننا، الجميع كان يأملُ حياة مُماثلة، نكثرُ من الالتفات بعضنا إلى بعض في أمسيات القرية الصاخبة، نفلتُ

ضحكاتنا لنفصح عن تفاهمنا، تكفي إيماءةٌ واحدة من رأس أحدنا ليستشعر الآخر المعنى بيسر، يتركُ أحدنا وجبة غدائِه في الثلاجة لأنّ الآخر لم يصل في وقت الغداء إلى البيت، يبقى أحدنا مُتسمرًا أمام الباب مُنتظرًا وصول الآخر، هل تعرفين قدر الحسرة التي كانت تُحرضها علاقتي بوالدكِ؟».

بدأتْ الغرفة تدفأ، وأصبح من الممكن أن أُفلِتَ البطانية، وأن أنزع الجوارب وأنا مُطمئنة. دفعتُ غطاء رأسي ليستقر فوق كتفي، ثم رفعتُ شعري عاليًا، ولمته جيدًا بمقبض الشعر. أرخيتُ كتفي بينما ارتفعت نبرة صوتُ أمّي: «كيف سنخبر الناس وإخوتكِ بالقصّة؟». بدا أنّني أفتح بابًا لمشاكل جديدة، في حالة لم تكن لديَّ قصّة جيدة لأقولها، وهذا ما فاتني التفكير فيه في لحظة اهتمامي بخلاصي من شريك حياة تعيس. عادت تقول: «تزوجتما منذ أكثر من عشر سنوات، لم تشتكي يومًا، لطالما كنتِ الأكثر التصاقًا بزوجكِ. أعرف قريبات لنا يمضين إلى مشاكل لا نهائية.. لكن أنتِ...».

كان ينبغي أن أستجمع بعضًا من الشجاعة لأقول: «ربما لأنّي كنتُ أراكِ مثالًا، أردتُ أن أكون مثلكِ دومًا، كنتُ أجابهُ كلَّ مشاكلي باستدعاء وجهكِ، استدعاء قدرتكِ على أن تكوني مثار الغِبطة من الناس، لكنني أخفقتُ هذه المرّة». لكنني لم أتمكن من قول ذلك على نحو جيد. هنا صار صوتها أعلى ووجهها أكثر تجهمًا: «ما الذي لم تحتمليه؟.. هاه.. ما الذي لم يكن مُحتملًا بينكما؟.. هل

يخونكِ؟.. يضربكِ؟.. ينبغي أن يكون هنالك سببٌ غير مُحتمل للوصول إلى هذه النهاية!».

إلى اللحظة التي سبقت سؤال أمّي المتكرر عن السبب الذي هدم كلَّ شيء، لم يكن في ذهني سببٌ مُحدد لترك زوجي، لا يوجد سببٌ أستطيع قوله بطريقة مُقنعة لأمّي تحديدًا، الأمر كان ينمو بيننا ببطء، عامًا بعد آخر، في تفاصيل صغيرة لا يمكن وضعها الآن في قصّة ساذجة. لكن الدفء الذي غمر غرفة المعيشة التي نمتُ فيها كثيرًا في طفولتي الأولى، التي لطالما كنتُ فيها طرفًا ثالثًا بين أمّي وأبي، ورأيتُ وسمعتُ فيها ما لا ينبغي أن يُرى ويُسمع، كانت تُحرضُ في داخلي حنينًا منسيًّا، كانت تُشعرني بأمانٍ غامض في أكثر لحظات حياتي هشاشة. بقيتُ أنامُ فيها إلى أن جاء إخوتي من بعدي، وكبر البيت وتعددت غُرفه. استلبني الحنين القديم فنما عازلٌ شفاف، وتبدد صوت أمّي الغاضب.

آنذاك قلتُ بشيء من الارتياح: «تذكرين عندما سافرنا إلى إيران أنا وزوجي؟»، قلتُ جملتي تلك، ولم أكن كعادتي مُتشنجة، ودموعي لم تغمر حلقي هذه المرة، تلك الدموع التي تمنعُ تدفق الكلمات، كنتُ في وضع مثالي تمامًا لأتحدث إليها: «أحضرنا سجادة يا أمّي، اخترتها بعناية فائقة وأحببتها جدا، نُسج عليها سمكتان متعانقتان، إحداهما فضية والأخرى ذهبية، بينما كانت أرضية السجادة تميل إلى «البيج» الفاتح. وضعتُ السجادة في غرفة النوم، لأتمكن من النظر إليها كلما فتحتُ عينيَّ. كان عناق السمكتين يثيرُ

داخلي مشاعر من نوع خاص. كنتُ أجد في تلاحم السمكتين صبرًا لإكمال الطريق مع زوجي. زوجي أيضًا أحبَّ السجادة. كانت من الأشياء القليلة والنادرة التي قررنا معًا شراءها دون تفكير كثير. لكنه تجرأ على نقلها إلى غرفة المعيشة ليراها كلُّ الضيوف. كان فخورًا بذوقه. في اليوم التالي أرجعتُها بإصرار إلى غرفة النوم، وبعد يومين وجدتها مجددًا في غرفة المعيشة. في اليوم الخامس تنازعنا على المكان الأفضل لوضع السجادة، ونحن نتناول الإفطار. بعدها قلنا أشياء لم نقلها يومًا طوال سنوات حياتنا معًا»!

تحاذى ظهرانا على الوسائد، فمدتْ أمّي قدميها أمامها، وفي الغرفة الضيقة والمُلتهبة بالحرارة، تلامستْ أصابع قدميّ بأصابع قدميها. بدا أنّ إحدانا لا تأمل في أن تزحزح التحامها النادر بالأخرى، بدا لي أنّ أمّي ستبكي، لكنها بدأت في تخفيض حرارة المدفأة، ولدى اقترابها أكثر من وهج الإضاءة، شاهدتُ وجهها المُحمر والدموع تنزلق على جانبيّ وجنتيها البارزتين. قالت بصوت مُتحشرج: «إذن لم يكن لديكِ أسباب حقيقية للطلاق، ليس في حوزتكِ حتى قصّة جيدة تقولينها للناس»!

تصاعد إلى حلقي كلامٌ كثير أقلّ ترتيبًا مما كان، وبنبرة أكثر رعونة قلتُ لها: «كنتما تصدقان ما يتوهمه الآخرون عنكما أنتِ وأبي، كنتما راغبين في ذلك بشدة، تناضلان لسنواتٍ طويلة لإبقاء أعين الناس مفتوحة على سمعتكما الطيبة، ذلك الحد اللامعقول من التفاهم بينكما. الأمرُ ليس مثاليًّا تمامًا يا أمّي، أنا ابنتكِ البكر،

وأعرف ذلك جيدًا!». هزتْ أمّي رأسها بخنوع: «لا تخلطي حياتي بحياتك، لا تفعلي ذلك. ماذا تعرفين أنتِ؟.. ها.. ماذا تعرفين؟ تدمرين حياتكِ وحياة إخوتكِ القادمة من أجل التفاهة؟.. ها.. التفاهة وحسب؟».

لم أجد كلامًا مناسبًا أقوله لها، لم أجد قصّة جيدة لطلاقي، ولكن بينما خنصر قدمي اليسرى يلمس بخفة خنصر قدمها اليمنى، تذكرتُ الفتيات السائرات في الطريق، وهنّ يُصدرن تأوهًا ناعمًا، ويرغبن بشدة في حياة مُماثلة لحياتي مع زوجي. أعرف جيدًا ذلك التمني الساذج، بأن يُصبح كلٌّ من يرانا، ونحن نسير معًا، مُتحفزًا لعذوبة حياتنا ورقتها. الشبان الصغار يتوقفون عن تحريك عجلات دراجاتهم الهوائية، ليتسرب الاطمئنانُ إلى قلوبهم. ورغم تكاثر أطباق الأبناء من حولنا عامًا بعد آخر، احتفظنا أنا وزوجي بطبقٍ واحدٍ نأكلُ فيه معًا. لم يكن هنالك في حياتنا كلها طبق منفرد لأحدنا. كنا نفعل ذلك لنثير شيئًا في نفوس من حولنا، وكنا بصورة لا إرادية نتغذى على إطرائهم.

كنتُ أدركُ جيدًا أنّ حجرًا صغيرًا في بركة حياتنا الراكدة، أنا وزوجي، سيفضحُ الهشاشة، ولذا بقينا نحاولُ دائمًا منع الحجر الصغير من الاصطدام بزجاج حياتنا، وغالبًا كان الأمرُ ينجح، فيكبرُ بيننا نشيدُ السكينة والدعة لأعوامٍ مديدة. لكن أحدنا سمح لحجرٍ صغيرٍ جدًّا بأن يصطدم بالبركة، فعل ذلك بإرادة تامة، وظل يراقبُ بعينٍ يائسة الدوامات التي أثارها الحجر. ظلت الدوامات

تكبر وتكبر، بينما الآخر يُخفقُ في ردعه، أو لربما كان هو أيضًا يأملُ في قرارة نفسه أن يُنهي الأمر، وكأنّ مهمة منع تسلل الأحجار لروح البركة، أمرٌ مملٌ وعبثي. ظلَّ كلُّ واحدٍ منا يرقبُ الآخر.. أيّ واحد منّا الأكثر كفاءة على تجاهل حجرٍ يُمزقُ الدعة المتوهمة بيننا؟!

كانت الأحجار تتكاثر وترتطم دون صدٍّ يذكر! وعندما نمتْ دوامةٌ في قلب دوامة أخرى في بركة حياتنا، عند ذلك وحسب، زالتْ الغِبطة من أعين الناس بشأننا.

لم أقُل لأمّي شيئًا من تلك الأفكار التي تحركتْ فورًا في رأسي. كانت الظلمة تزدادُ كثافة من حولنا. خمّنا أنّ الشمس غابت آنذاك، ولم تتحرك إحدانا لفتح الإضاءة، كلُّ واحدة منا تجاور الأخرى مفترشة الأرض ومسندة ظهرها إلى الوسائد المزركشة، وحتى تلك اللحظة لم نصل إلى صيغة تفاهم جيدة، حول القصّة التي ينبغي أن نقولها للناس. لم تكن هنالك قصة جيدة تُقال عن طلاقي بعد. وحدها أصابع قدمينا، أنا وأمّي، ظلّت تضغط برفق بعضها بعضًا في تفاهم نادر.

مطبخ العائلة

مكتبة
t.me/soramnqraa

راودني الحلم نفسه مجددًا.

طريقٌ لا نهائي وسط غابة، غابة أشعرُ أنّني مررتُ عبرها منذُ زمنٍ بعيد. ينسكبُ المطرُ على ثيابي، فتنبعثُ الروائحُ العذبةُ للأرض وأوراق الأشجار المُبللة. كنتُ أركضُ كأنَّ أحدهم يُطاردني، وبينما أفعل ذلك تمتلئُ رئتاي بروائحَ طيبةٍ، لا أتمكن على وجه الدقة من تفنيدها، ولكنها تصل إلى شغاف قلبي، فأنهضُ فزعة ومُتعرقة.

أفتحُ الدرج الأخير من خزانة ملابسي، وأنظر إلى القناني الصغيرة التي عبأتها أمّي بنكهاتٍ طيبة، أشمُّها بعمق، إنّها الرائحةُ نفسها التي تراودني في الحلم. أعيدُ القنانيَ إلى مخبئها الصغير، فتصعدُ الحموضة مع وخزٍ طفيف في المعدة، لكنني أقاومهما معًا بالنهوض والسير إلى المطبخ المجاور لغرفتي.

لوقتٍ غير قصير، تعيشُ العائلة التي أعمل عندها في المطبخ،

تعيشُ في المطبخ فعلًا من دون مُبالغة، تتبادلُ الأحاديث حول الأشياء التي عبرتْ يومها العادي، سواء أكانت في عمل الوالدين أو كانت في مدرسة الأولاد. تتوحشُ الأحاديث قليلًا عندما تناقشُ الأمُّ جدوى أن يكون المطبخ أوسعَ مما هو عليه وأكثر ترتيبًا، تتوحشُ أكثرَ عندما تعاودُ الإفصاح عن رغبتها في مطبخٍ ذي واجهةٍ زجاجية، أو رغبتها الأخرى في طاولة رخامية ومقاعد مرتفعة كتلك التي تظهرُ في الأفلام. لا يجدُ الأبُّ أهميةً تذكر في هذه الرغبات. أخمنُ أنّه يقول لها: «الطقسُ حارٌّ بما فيه الكفاية، من الحماقة إتاحة المجال أكثرَ لتسلل الشمس عبر واجهة زجاجية، وأيضًا لدينا طاولة صغيرة تفي بالغرض دائمًا». تهدأ حدّة الأحاديث بقليلٍ من الدعابات المرحة بينهما.

يتقبلُ الجميع المطبخ الصغير، والأقل ترتيبًا مما تأملُ مخيلاتهم، فكلّ ما يتمنونه يخرجُ من فرن الأمّ الصغير هذا، كما أنّ يدي الأب تشوي اللحوم بمهارة لا يُعادلها شيء. خلافاتُ الأولاد وقصصهم المخترعة كانت تُحكى على مهلٍ وتأنٍّ جوار المجلى، حيثُ تُغسلُ الأطباق وتجفف على رفٍّ صغيرٍ في خزانة خشبية. ما إن ترى عدد أطقم الصحون، حتى تظن أنّ البيت مُكتظٌّ دومًا بالضيوف، وهذا عكس الحقيقة، فالأب هو من هواة جمع الصحون والطواجن والقدور، يشتري بنهمٍ دفعَ الأمَّ في مراتٍ لاحقة، إلى تذكيره بمطبخها الصغير، ولكيلا تكرّ شريط أحلامها بتكبير المطبخ، كان يكبحُ رغبته الدائمة بالشراء.

بينما تجفُّ الصحون كان زعلُ الأولاد يخفتُ أيضًا، ثم ما يلبثون أن ينشغلوا بصوت خلاط العصير. كنتُ أدركُ أنّهم لن يتناولوا غداءهم دون عصيرٍ طازج، ولكنهم يتزاحمون الآن ويرغبون في تقشير المانجو وتقطيعه إلى شرائح، والفتاة الصغيرة تبكي وتريد هي الأخرى تقطيع الفراولة. يتبدى الانزعاج على وجهي، وأنا أرفع صينية الفواكه عاليًا، بينما الأيدي الصغيرة تحاولُ جاهدة أن تخطف الفاكهة مني. لا يبدو أنّ الأمّ والأب على حدٍّ سواء مُكترثان بالصراخ، ولذا فهما لن يقولا شيئًا حاسمًا في هذه اللحظة. أبقى وحدي أجاهدُ بعزمٍ منع وصول الأيدي بينما أدلقُ المحتويات المُقطعة إلى بطن الخلاط. مكتبة سُر مَن قرأ

يُطهى الطعام هنا بصورة جماعية يوميًّا، ولا يبدو أنّني سأعتادُ الأمر. يمكنك التأكد من ذلك بمجرد النظر إلى عينيّ الصغيرتين اللتين تضيقان لتُعبرا عن امتعاضٍ ما. من الأكيد أنّ العمل الجماعي في المطبخ مُزعجٌ أكثر مما تظن العائلة المهووسة، لكن عينيَّ اللتين تضيقان لم تنجحا يومًا في إزاحتهم خارج المطبخ.

لوقتٍ غير قصير كنت أرغبُ في تذوقِ شيء يخصني، شيء افتقدته. كنت أدركُ في أعماقي أنّ الطعام يكسرُ حدّة شوقي العارم، لكن الأمّ لم تتفهم يومًا جدوى طلبي الغريب هذا، لقد استهجنته، لا سيّما أنّني -من وجهة نظر الأمّ- محظوظة إذ أمكثُ مع عائلة، أكثر ما تجيده في الحياة هو الطبخ!

لأشهرٍ طويلة بقيتُ أركضُ وسط حقول وغابات ريف بعيد

في أحلامي، أركضُ وروائح الأطعمة المنسية تتصاعد من البيوت الصغيرة، تتسرب إلى أعماقي، فأصحو من نومي خائرة القوى.

مع توالي الأيام لم أعد قادرة على أن يدخل شيءٌ ما إلى معدتي دون أن تتهيج، ودون أن أستشعر انقباضات الحموضة التي ما تلبث حتى تفور إلى حلقي.

يتحركُ الجميع هنا بصورة صاخبة. ها هي الأمُّ تدعكُ البهارات والثوم على جسم الدجاجة المُستسلمة، والأب يرفعُ حرارة الزيت في المقلاة، والأبناء يقطعون الخضار بعبثٍ لا نهائي. لدى كل واحد من الأولاد سكين صغيرة وحادة، يجلسون إلى طاولة الطعام المحشورة في زاوية المطبخ ويقطعون. لدى أكبر الأولاد جزرًا، ولدى أوسطهم فليفلة، وأصغرهم كانت فتاة ما لبثت أن هرست حبّة الطماطم بفوضوية اقشعر لها بدني، بينما لم يستدعِ الأمر سوى التفاتة صغيرة من وجهِ الأمّ المُبتسمة على الدوام. تشي عيني بتوترٍ بات مألوفًا مع الوقت، أوشكُ أن أقول كلامًا من قبيل: «سيقطعون أصابعهم»، لكن الأمّ التي تلتفت دون اكتراثٍ، لا تبالي كثيرًا بشأن الفوضى العارمة، ولا بشأن الأصابع أيضًا. كلّ ما ترتده وهي منغمسة في عملها، يتعلق غالبًا بحثهم على تقطيع الأشياء بشكلٍ متساوٍ.

لم يحدث طوال عملي بصحبتهم أن جرح أحدهم إصبعه، وإنّ حدث فأنا متأكدة أنّ الأمّ لن تُحملني وزر ذلك، إلا أنّني أيضًا ما كنتُ لأطمئن للأمر يومًا.

لا أفهمُ الكلام الذي يقولونه بعضهم لبعض بمحلية مُقعرة، ولكني أستشفُّ ردود أفعالهم من حركات أجسادهم التي لا تهدأ وتيرتها. أمدُّ طبقًا لهذا وآخر لذاك، أجمعُ قشور البطاطا والبصل والجزر، وأطعمُ القطط التي تموء خلف باب المطبخ، بقايا أحشاء الدجاج التي لا يأكلونها. ليس لدى الأبناء حساسية من أطعمة مُعينة، ولكنهم يفضلون تكرار أطعمتهم باستمرار على نحوٍ مملٍّ ورتيب، بينما الزوجان يبتكران طوال الوقت أطعمة، ويضيفان نكهات جديدة، ولم يبخلا عليَّ يومًا بفرصة تجربتها بصحبتهم.

سُمح لي بالاقتراب من المجلى وغسل الصحون وتحضير العصائر في أحيانٍ نادرة، فعملي الأساسي كان يتمحور حول إخفاء الفوضى التي يخلفونها. كلُّ شيء ينبغي أن يعود كأنّما لم يُمس، ابتداءً من الرفّ المُعلق على الجدار، والذي يحملُ بهارات متنوعة لم أتوقع وجودها واقعيًّا في العالم. أمررُ قطعة قماش، وأدير البرطمانات بين يديّ لتنظيفها جيدًا، وأقرأ ما كتب عليها باللغة الإنجليزية. كانت أنواعًا لا تعدُّ ولا تُحصى من الخلطات العجيبة. أنظفُ رفّ الجرانيت الذي تفردُ عليه الأمّ المُعجنات لتصنع أطباقًا لا نهائية من الحلويات والفطائر، فأجمعُ ذرات الطحين العالقة، التي تبدو لي ككواكب صغيرة في مجرة عملاقة. أمرر فوقها قطعة قماشٍ مُبللة فتختفي الكواكب من مجرتها العملاقة، ولا أهملُ بقع الزيت التي تطايرت هنا وهناك، لأنّ الأب أراد أن يريهم كيف أنّه يستطيع قلب قطعة اللحم في الهواء. فعل ذلك بمهارة لا أنكرها، تشقلبتْ

قطعة اللحم لجزء من الثانية ثمّ عادت لترتطم بالمقلاة مجددًا دون أن يلمسها بالشوكة. صفّق الأبناء لأبيهم، لكن أحدًا منهم لم ينتبه لطرطشة الزيت التي تطايرت بفوضوية على أطراف الفرن.

أنتبهُ وأنا أجلي الأطباق للزوجين المتجاورين، أنّ أحدهما يضع الطعام في فم الآخر ثم في فمه. يمضغان الطعام معا، يصمتان قليلًا، ومن ثم يتحدثان عن ضرورة إضافة شيء ما. غالبًا ما تكون الزوجة أكثر حدّة في توجيه انتقاداتها إلى الزوج، بينما يكون هو أكثر انفتاحًا على النكهات التي تُفكر في إضافتها. يحدثُ هذا يوميًّا وبشكل روتيني، فيثورُ بداخلي بركانٌ غامض، ولا أتمكن من اعتياد الأمر، كما لا أتمكن من كبح تلصصي عليهما.

آخر ما أفعله يتعلق دومًا بكنس الأرضية، ودلق دلاء الماء، ثم مسحها بمواظبة إلى أن تصبح لامعة.

أنهي طبقي بحرص شديد أمام أعين الجميع على المائدة، رغم سكاكين الانقباضات في معدتي. أنا أعي جيدًا أنّ بقاء الطعام في طبقي يعني بطريقة أو بأخرى أنّني أصدر انتقادًا حادًّا للأمّ، وكم كنتُ في غنى عن هذه التصورات.

حصل منذ زمن بعيد أنّني لم أحبَّ الطعام الذي حضرته الأمّ، كانت البهارات كثيفة والفلفل طاغيًا. قلتّ بأنّني لا أرغب في إكمال طبقي، نظرت إليَّ الأم نظرة من لا يُقدرُ النعم، ومنذ ذلك اليوم وأنا آكل كلّ ما يُتركُ في طبقي. لم يُسمح لي أن آكل في غرفتي، الجميع

هنا ينضمُّ إلى المائدة على حد سواء، يبدو ذلك بالنسبة إلى الأقرباء والضيوف الذين يأتون بين فينة وفينة في غاية العذوبة والرقة. «المرأة الغريبة تأكلُ على مائدة العائلة، في الأطباق نفسها ومن القِدر نفسه، بل ومما تطبخُ الأمّ لأسرتها.. أيّ ترفٍ هذا»، قال أحدهم ذات مرّة.

في الزاوية المقابلة لطاولة الطعام علقتْ العائلة تلفازًا، ليشاهدوا الأفلام والمسلسلات ونشرات الأخبار. يتحمسون ويضحكون ويكتئبون هنا، يديرون مروحة صغيرة عندما يكون الطقس مُعتدلًا، ويشغلون التكييف في الصيف الحار.

الزوجان بارعان بطريقة لا يمكن تخيلها في عمل أشياء كثيرة. لقد بقيا يبتكران طرقًا وأساليب مختلفة في الطهي، بل إنّهما في حالة لم يُعجب الأبناء الدجاج مسلوقًا فهما لا يمانعان أبدًا من إعادة قليه، بعد إضافة التوابل الجديدة إليه، حتى ليظن الأبناء أنّه طبق جديد، ولا يمانعان أيضًا تحويل بقايا الخضار واللحوم إلى حساءٍ بطعمٍ أخاذ، كما أنّ ما يتبقى من السمك المطهوِّ، يمكن أن يُضاف إلى السلطة أو يُقلى مع البطاطا. لديهما قدرة خارقة على إعادة صنع أشياء مُفعمة باللذة من أطباق بائتة، ولكنهما كانا حذرين جدًّا من أن أتعلم شيئًا. تتغير نظرة الأمّ وتصبح أكثر صرامة من المعتاد ما إن تلحظ أيّ محاولة مني لتعلم شيء ما، أو القيام بأمر أكثر مما هو مطلوب مني. تنهرني الأمّ ثم تطلب مني غسل رؤوس البصل، أو تكييس البقدونس والنعناع بعد تجفيفهما على نحو جيد. هنالك سيلٌ من الأوامر والتنبيهات كانت تشغلني وتمنعُني من معرفة أسرارهما.

في المساء يخرجُ الجميع من المطبخ، مُخلفين الأطباق المتسخة والأكواب وحبيبات الأرز على الطاولة. يغسلون أيديهم ويخرجون، آنذاك وحسب، أشعر أنّ المطبخ بات لي وحدي.

غرفتي ودورة المياه ملتصقة بالمطبخ، غرفتي واسعة وفي جزء كبيرٍ منها علاقة ثياب. أكوي ثياب العائلة وأعلقها، وفي دورة المياه الواسعة توجد غسالة الملابس، وهكذا فإنّ العائلة لا ترى ثيابها إلا نظيفة ومكوية ومرتبة لاحقًا في الخزانات. أتمكن من تنظيف دورات المياه جميعها والغرف من دون رقابة، من دون أن تكون عينا الأمّ مصوبةً إليّ، ولكنني لا أستطيع ذلك في المطبخ. لقد تجرأتُ وارتديتُ فستان الأمّ والتقطتُ صورًا أرسلتها إلى صديق قديم ثم أعدتُ الفستان إلى الخزانة، ولم يعرف أحدٌ بأمر ذلك. جربتُ أيضًا بعض مساحيق وجه الأمّ وأعدتها مرتبة حيث كانت، وفي مرات عدّة لبستُ خواتمها وأساورها، ولم يكن ثمة وجلٌ يذكر ولا ارتعاشات ولا انقباضات كتلك التي تحدثُ في المطبخ.

أشعر بالخجل الشديد من مجرد طلب الإذن للذهاب إلى غرفتي. أبقى واقفة ومتأملة في انتظار أن يطلبوا مني القيام بأمرٍ ما. فوجودي ضروري تمامًا كوجود كلّ تلك البرطمانات التي تحوي خلطات لا نهائية.

في يوم الجمعة الذي تتركُ فيه العائلة البيت ويخرجون إلى قريتهم البعيدة، تُخرجُ الأمّ بأمومية عالية طعامًا لفته بعناية في الثلاجة، «يمكنكِ تسخين هذا الطعام.. سيعجبكِ». ثم ترشدني إلى

ضرورة أن أفعل ذلك على نار مُنخفضة، ترشدني أيضًا إلى النكهات التي يمكن أن تجعل الطعام ألذ، تذكرني لمرات عدّة بضرورة إغلاق النار جيدًا عقب التسخين، وترك النافذة مفتوحة ساعات النهار، ثم إغلاقها ما إن تغيب الشمس. تكرر الأمر مرّات عدة كأنّني مصابة بالطرش، فأهزُّ رأسي هزّات متواصلة.

في مراتٍ سابقة كنتُ أنفذ ما يُطلب مني بحذر شديد، وأبقى في المطبخ مُرتبكة، كأنّما العائلة كلها ما تزال هنا، تراقب كل تحركاتي.

ولكنني، وعلى غير العادة، شعرتُ بأنّ المطبخ يخصني ما إن غادرت العائلة هذا الصباح، وخرج معهم الضجيج والصراخ والفوضى. قلبتُ الطعام المُثلج بين يدي واجتاحني وجعٌ شديدٌ في معدتي.

طوال حياتي في قريتي البعيدة لم أتناول طعامًا مُثلجًا. كانت أمّي تذبح من دجاجاتها ونأكل من بيضها الطازج، ونقطف من خضارنا وفواكهنا، ببساطة لم تكن لدينا ثلاجة تجعل الطعام بهذه الدرجة من التفاهة.

تذكرتُ تنبيهات الأمّ بضرورة ألا أطبخ شيئًا يخصني في هذا المطبخ، وعليَّ دومًا تناول ما يُحضر للعائلة. لقد أصابني السأم، ولدي حنينٌ خاصٌّ لطعامي، لكني يومًا لم أتجرأ على تنفيذ رغباتي.

فكرتُ مليًّا في طهو طبقٍ يُعيد إليَّ ذكرياتي وأوقاتي الحلوة في بلادي البعيدة، فكرتُ في شيء خاص لم تعبر روائحه يومًا مطبخ

العائلة، حركتُ فصوص الثوم المهروسة مع قطرات صغيرة من زيت الزيتون في المقلاة ومع رشّة صغيرة من الملح والفلفل الأسود، ثم ألقيتُ البامية والفاصولياء الخضراء وبدأتُ التقليب، ومن جيب بنطلون اليونيفورم، أخرجتُ نكهات أمّي التي لم يتعرف عليها هذا المطبخ من قبل، رششتُ منها فوق الطعام، فسرتْ رائحة الأعشاب الزكية في أرجاء المطبخ. تذكرتُ رائحة الحقول البعيدة والجو الاستوائي ومطبخ أمّي. أغلقتُ الباب والنافذة كيلا تهرب الرائحة.

جلستُ إلى الطاولة المحشورة في الزاوية، بينما الطعام على نار هادئة. أغمضتُ عينيَّ. ذرفتُ دموعًا غزيرة، ثم استعدتُ كلّ شيء.

ورقُ جدران بيت زهرة

انتبهتُ لحواف ورق الجدران المتقشر في غرفة المعيشة، وقعت عيني عليه عندما جلستُ لأول مرّة في بيت الزوج الجديد. حواف بارزة تظْهرُ من ورائها صبغة انحلّ لونها. رفعتُ نظري قليلًا إلى الأعلى، وأنا أتناول كوب عصير البرتقال من يده، كان شديد الابتهاج بي عقب مغادرة الضيوف، لكن ورق الجدران الملتصق بكل غرف البيت وممراته اللولبية بدا كلوحة كئيبة ومشوهة. خلفية باهتة لأغصان تلاشتْ بعضُ أجزائها، وعليها ورد أحمر مُتغضن، انفلتتْ وريقات بعضه على امتداد الجدار، «كأنّ يدًا امتدّت لقطف الورد ثمّ انتابها ندمٌ ما»، هكذا فكرتُ مع نفسي، لكن لم يتسنَ لي التحدث عمّا جلبته الأغصان من امتعاض وجفاف في حلقي.

اعتمل بي قلق حاد من تواجدي مع رجل غريب تزوجته في حفل عائلي صغير بعد مرور سبع سنوات على طلاقي الأول. ولا أدري لماذا امتدّت ضغينة مُخاتلة تجاه البيت، على نحو أدق تجاه

ورق الجدران الذي أشعرني أنّي في غابة تتطاول إلى ما لا نهاية، تمتد أذرعها المُرعبة من غرفة إلى أخرى.

جلستُ على الكرسي المُقابل للمرآة الطولية في غرفة نومي، بينما اضطجع زوجي الجديد على السرير مادًّا رجليه تحت شرشفٍ مُقلم، مُسندًا جُزأه العلوي إلى وسادتين لينتين، كنا عروسين جديدين إلا أنّ كسوة سريرنا لا تبدو كذلك!

أعطيته ظهري وأخذتُ أسرّحُ شعري الكثيف كستنائي اللون، بينما استغرق هو في تأملي من دون أن يُزيح بصره عني للحظة واحدة. أربكني تحديقه المستمر المنعكس على المرآة، فتضاعفت حركة يدي بشيء من القلق، رفعتُ شعري تارة وعاودتُ فرقه من المنتصف تارة أخرى. قام من سريره ومُتأنيًا فتح ضلفتيّ دولاب الثياب الخشبي، أخرج منه قميص نوم حليبي اللون، لم يكن القميص لي، لكنه تركه بين يدي بشيء من الرجاء.

«تعرفين»، قال لي وهو يلتحفُ مجددًا بالغطاء المقلّم: «ينقصكِ بضع كيلوجرامات وتصبحين... ممم»، أطلق ضحكة. نظرتُ إليه من خلال المرآة من دون أن ألتفت إليه مُكرمشة القميص في قبضة يدي: «أُحِبُّ وزني.. لا أسعى إلى أيّ زيادة». لم يقبض ضحكتَه وهو يقول: «وأنا أحبّكِ.. لكنّ قليلًا من الكيلوجرامات تُحدثُ فرقًا».

مضت الأيام بيننا من دون أن ينجلي انقباض قلبي، أرتعشُ كلما أفقتُ من النوم وجسدي مُطوق بيديه القويتين، وكلما طوى

ذراعه تحت ذراعي في مشينا الطويل جوار البحر. تمضي قشعريرة باردة كلما أرخى رأسه على كتفي ونحن نشاهدُ فيلمًا في آخر الليل، ويملؤني الخوف من عدم اعتيادي على وجوده في حياتي. شعرتُ كأنّي بُرعمٌ ضئيل خرج من ظلمة بذرته إلى ظلمة أشد قتامة، بُرعمٌ تُفزعه سماكة الأغصان المتوحشة على حيطان البيت! رددت أمّي وصديقاتي والجارات مُتغامزات: «مسألة وقت لا أكثر»!

أنظرُ إليه بريبة عندما يعود من عمله مُتحدثًا عن الأحداث التي عبرت يومه، يفتحُ معقمة دشداشته، يرفع أكمامه إلى أعلى ذراعيه، يُلوح بيديه، فلا أتمكن من الإصغاء إليه، أردتُ أن أقول له إنّ الأغصان المتشابكة من خلفه في الجدار تُشوش أحاديثه، فتبدو وكأنّها تخرجُ من قاع بئر عميقة. رغبتُ في التحلي بشيء من الشجاعة لأخبره عن حاجتي لنزع ورق الجدران. فكرتُ في الليالي السابقة بأنّ اللون الأبيض سيُعطي مساحة للبيت وسيحدث تناسقًا مع لون الأثاث. لكنه لم يكن مُهتمًّا بسؤالي حول ما أنوي تغييره من الأثاث الذي انتقته زهرة.

يعود من العمل مُتلهفًا، يبحثُ عني كطفل صغير، وعندما يجدني واقفة في المطبخ يقتربُ مني إلى درجة تجعلني أجفل، لا أحتمل أن تكون أنفاسه على تلك الدرجة من القرب. أدعكُ يديّ في مئزر المطبخ: «لا أحبُّ أن.. في المطبخ»، ولكنه يقبضُ على يديَّ الهزيلتين بين يديه، فأبعد وجهي، تتعالى أنفاسي. كان زوجي السابق يفعل ذلك كلما أراد أن يضرب خدي، لكنّ الزوج الجديد يضغط

على يديَّ برفق، ثم يرفعهما ويقبل رؤوس أصابعي مُتسائلًا: «ما الغداء اليوم؟»، وأبقى في حالة ذعر وتوجس.

ينظرُ إلى طاولة الطعام الصغيرة التي تزحزحت من مكانها، يرفعُ رأسه مُستنكرًا. «تبدو الطاولة أقرب إلى النافذة اليوم؟» يتساءل، «أحبُّ أن يملأني الضوء»، هكذا أجيبه. ربّت على كتفي: «على الأشياء أن تبقى كما هي.. ينبغي ألا تتحرك الأشياء من أماكنها ألبتة!»، أعاد الطاولة والكرسيين إلى حيث كانا في البدء. ثمّ تضاعف استياؤه وهو ينظر إلى نافذة المطبخ المُشرعة، بدا وكأنّه سيكشُّ ذبابة من أمام وجهه. كنتُ قد وضعتُ شتلات صغيرة صففتها بعناية على الإفريز، لكن الزوج الجديد رأى أنّها تجلب الحشرات، ولذا لم يتوانَ عن حشرها جميعًا في سلة المهملات الصغيرة أمام ناظري. غسل يديه، ثم أخذ نفسًا عميقًا، لفّ كتفي بيديه وأجلسني على كرسي الطعام، «هيا سنأكل الآن».

شعرتُ بدموعي تغزو عينيَّ، بأنفاسي تتصاعد، بارتجافات لا إرادية تقطعُ نشيجي. انتبه لاهتزاز جسدي، لتلك التموجات العارمة التي تنامت بداخلي، فلم أقدر على ردعها، صدّر نظرته المتعاطفة والمريبة في آن، اقترب مني رفع ذقني الرفيع بين سبابته وإبهامه، فانسابت الدموع بكثافة من عيني، لكن بلا صوت هذه المرّة: «أخبرتكِ يا عزيزتي، ينبغي للأشياء ألا تتحرك من مكانها في هذا البيت! لا تضاف أشياء ولا تنقص أشياء، أنا أحفظ بيتي عن ظهر قلب، وأريده أن يبقى هكذا». مرّر أصابعه على صفحة وجهي

برقة مبالغ فيها، ومجددًا رفعتُ يديَّ أمام وجهي كمن يُحاول صدّ ضربة مُحتملة.

لم أتمكن من فتح الكراتين التي أرسلتها أمّي إلى البيت قبل العرس. صحونٌ وأطباقٌ وحِللٌ جديدة، فوط وشراشف موشاة بزهور اختارتها أمّي بعناية. بقيت الكراتين في أماكنها. قال الزوج الجديد إنه لا يود تغيير الأطباق، ولا الأكواب ولا الحِلل، فالمطبخ يحتوي كل هذه المستلزمات، وهي ما تزال جيدة ونظيفة، لأنّ زهرة اعتنت بها على نحوٍ جيد لتسعة عشر عامًا. الشراشف والفوط موجودة أيضًا وإن اختلفت زينتها.

وضعتُ مرقة الدجاج فوق الأرز في طبقه وفي طبقي، وخيّم علينا صمت كئيب. بصق الزوج الجديد لقمته الأولى وأخذ يسعل. تناول منديلًا ورقيًّا ثم تمالك نفسه: «لقد وضعتِ البهارات اللعينة». تعالتْ السعلة، ناولته كوب ماء بارتباك وانتظرتُ أن يهدأ، ثم قال: «تعرفين أنا وزهرة لم نكن نفضلُ الطعام بالبهارات الحارة، كانت مُصابة بالقولون العصبي، تقريبًا كان طعامنا خاليًا من أيّ نكهة». نظرتُ إليه بغيظ: «ولكنني أحبُّ الطعام الذي له طعم». ترك مُتعمدًا شوكته والملعقة تسقطان وتحدثان صوتًا على أرضية غرفة المعيشة: «أنا أيضًا كنتُ أقول مثلكِ تمامًا.. لن أحتمل طعامًا من دون طعم، ولكنني الآن كما ترين اعتدتُ، وها أنا ذا أمامكِ أتناول طعامًا صحيًّا». نهضتُ وضغطتُ بكلتا يدي على حواف الطاولة. أردتُ أن أُبدي انفعالًا ما، لكن الكلمات لم تخرج من حلقي، كانت

الأغصان المتشابكة تلتفُ حول عنقي هذه المرّة. تلقفني بين ذراعيه كطفلة: «ينبغي ألا نزعل من بعضنا، الأشياء ستذهب إلى الأفضل بيننا».

الوقت يمضي حقًّا، ولكننا لا يعتاد بعضنا على بعض، والأمور لا تذهب إلى الأفضل. يغمرني بوده بصورة مُفرطة، وفي أكثر لحظاتنا الحميمية يُناديني باسم زهرة، ويستمر مُتعلقًا بي لدقائق، حاضنًا كلّ جسدي من دون أن يسمح لي بالتملص منه، وما إن ينزاح وتهدأ أنفاسه المتلاحقة حتى يقول: «آسف، إنّه التعود لا أكثر».

لم أُخدع ألبتة، أعرفُ كلّ شيء بشأن زهرة، زوجته السابقة التي خلعته في المحاكم، وظل يتقربُ من كلّ الوساطات المُمكنة ليستعيدها. لكنها فضلتْ التخلي عنه بعد تسعة عشر عامًا من العشرة. لقد وقعت زهرة في حب رجلٍ آخر كان يأتي بصورة أسبوعية لجعل حديقتها تزهر.

أنتبهُ بصورة مُفرطة لحواف ورق الجدران المُتهتكة في غرفة المعيشة، إذ لا يمكن لعيني أن تنظر خارج تلك الغابة التي تطبقُ على أنفاسي. أبسطُ يدي وأكورها عدّة مرّات مخافة أن تستجيب لما يُمليه عليَّ عقلي من نزق. تملؤني الرغبة الجادة في إزاحة الورق وتعرية الجدران منها. يلحظ الزوج الجديد اهتمامي، يعدّلُ نظارته فوق أرنبة أنفه مرارًا، ويغدو مزهوًّا: «تصوري يا حبيبتي، أنا وزهرة أوّل من وضع ورق جدرانٍ في غرفة معيشة..»، يفردُ الجريدة أمامه فتغدو كحاجز ورقي بيننا، لكنه سرعان ما يُعاود طيّها: «لقد ذُهل

الجميع لفرط جماله.. ثمّ طلبت زهرة أن نكسو كلّ البيت. تصوري.. كان الأمر شبه مستحيل، ولكني أرسلتُ في طلب كميات من دبي.» بدا بعينيه المفتوحتين وكأنّه ينتظرُ إطراء ما.

جلسنا في الحديقة لشرب الشاي، يُحيط بنا صوت عصافير الدوري التي تمكنت من بناء أعشاشها لموسم التزاوج، مدّ الزوج الجديد يده بتأنٍّ ورفع خصلة من شعري وأعادها وراء أذني، وأخذ يتأملني باهتمام: «هنالك شعرٌ أسود، جذور جديدة نبتت». تراجعتُ إلى الوراء قليلًا: «إنّه لون شعري الأصلي، هل كنت لتصدق لحظة أنّ لون شعري كستنائي؟!»، وعاوتُ الانشغال بتكسير حبوب عباد الشمس بين أسناني، مُتأملة ورد الحديقة التي صمّمها مهندسٌ زراعي خطف قلب زهرة وطار به. أردتُ بشغف أن أعرف تفاصيل قصّتهما الغامضة التي انتهت بفضيحة في المحاكم، لكن أحدًا لم يكن ليحكي لي أكثر مما يُشاع، لقد طُويت القصّة في مكان مكين.

ضغط الزوج الجديد على يدي الممدودة على الطاولة: «شعركِ الحقيقي أسود إذن». تراجعتُ مجددًا إلى الوراء: «نعم». ثم بإصرارٍ طفولي جامح قال: «لا تصبغي شعركِ ثانية، أريده أسودَ بصورة دائمة». ثم أضاف بنبرة أكثر حدّة: «إياكِ أن تفعلي».

أرغمني في مرات لاحقة على شراء عطور لا أحبها. أرغمني على أن أشتري فرشاة أسنانٍ بلونٍ أحمر قانٍ، وعندما كنتُ أشتكي كان الجميع ينظرُ إليَّ بريبة.

لم يتورع الزوج الجديد عن طلب أشياء غريبة، كلعق شحمة أذنه أو عضّها عضًّا خفيفًا، وعندما يحمرُ وجهي خجلًا، يكرُّ ما بات مألوفًا: «كانت زهرة تفعل.. كان لذلك وقعٌ خاص في سير علاقتنا الحميمية».

في العزومات نجلسُ وسط العوائل الكثيرة، فتغبطني الفتيات على الزوج الجديد، الذي لا يُشفى من تأملي. بينما ينتابني ذلك الشعور بأنّ هنالك ما يُطبق على أنفاسي.

في الليل أطفئُ الضوء، لكنه يطلبُ مني تشغيل الإضاءة مجددًا. ألتفتُ إليه: «قلتَ لي أيام الخطوبة، إنّك تحبُّ الضوء مُغلقًا». يفتحُ درج الكوميدينو المجاور له، ويتناول كيسًا بلاستيكيًّا: «أفضله مُغلقًا فعلًا، ولكنني ألبس نظارة قماشية منذ تسعة عشر عامًا، لكيلا يتسرب الضوء إليَّ، يمكنكِ أن ترتدي نظارة لو أردتِ، شريطة أن يبقى الضوء مفتوحًا». يفتحُ الضوء لأنّ زهرة تحبه مفتوحًا، وينامُ الزوج الجديد قابضًا على جسدي، فيطير النوم من عينيَّ. وعقب أن أتأكد من نومه أغادر السرير لأفتحَ نافذة غرفة المعيشة وأسندُ ذراعيّ إلى حوافها وأنظر إلى صفحة السماء، حيث أتأكد أن لا ورق جدران ينمو ويتشابك هناك.

«ليس من السهل أن يُغير رجلٌ، عاش مع امرأة تسعة عشر عامًا عاداته». كانت هذه هي الجملة التي تقولها أمّ وأخواتُ الزوج الجديد بصورة مُفرطة ليبدو كلّ شيء مُبررًا.

بدأتُ أعتاد اسم زهرة بيننا، يمكن أن يُذكر ما يربو على عشر

مرات في اليوم الواحد من دون اعتراض مني، بدأتُ أعتادُ ثيابها وصحونها ومفارشها وعطورها، لكن الشيء الذي لم أحتمله كان ورق جدرانها الذي سيجت به البيت.

صالون التجميل هو المكان الوحيد الذي نفترقُ فيه أنا وزوجي الجديد. أحبُّ أن أطيل المكوث فيه، المكان الذي لن يتجرأ على دخوله، ولن يُفسد لحظة استرخائي تحت أيدي الفلبينيات اللواتي يدعكنني بالكريمات والمساج، ذلك الارتخاء مع صوت الموسيقى العذب، حيث لا أحد يُخطئ في مناداة اسمي. لسعتْ كتفي حرارة الحلاوة المصرية، اعتذرتْ العاملة الفلبينية وأزالت الحلاوة وهي تكرر الاعتذار، وضعت ثلجًا فوق الكدمة، تركتْ الحلاوة اللاهبة أثرًا لا تخطئه عين، عكّر الأمر صفو مزاجي. لبستُ ثيابي وخرجت.

وعندما ركبتُ السيارة إلى جواره، قرص وجنتي المتوردة من أثر الخيط الذي حفّت به الفلبينية وجهي، فبدا مُشرئبًا بحُمرة.

في الليل كان الزوج الجديد مُتحفزًا كعادته، مُلتاعًا بأشواقه. وكان عليّ ارتداء قميص زهرة الذي يُفضله، لكن تلك الكدمة على الكتف المكشوف، والتي تغير لونها وبات بين أخضر وبنفسجيٍّ، أثارت غضبه وهياجه. أخذ يرتجف، تلعثمتْ الكلمات فوق لسانه. لم يُمهلني الوقت لأشرح له الأمر، انهال عليّ بالضرب. ضرب وجهي وكتفي، ثمّ دفعني بقوة ناحية الدولاب، ارتطم ظهري ورأسي بصفحته الخشبية فأحدثت صوتًا، ثمّ سقطتُ أرضًا: «ستفعلين ما فعلتْ.. كنتُ مُتأكدًا». وعاود ضربي أكثر فأكثر. ارتعشتْ كل

خلجة من خلجاتي، كان الزوج الجديد يكتسي وجه زوجي السابق.. يداه، عيناه، صوته، وآنذاك سالت مياه الماضي كلها وأغرقتْ البُرعم الصغير بداخلي.

جلس زوجي الجديد على الأرض، ضمّ رأسه بين رجليه، وأخذ يضربُ رأسه بكلتا يديه، وهو يردد كلمات غير مفهومة مُختلطة بالبكاء. تحاملتُ على جسدي المتألم، ركضتُ بكل جنون من غرفة النوم إلى غرفة المعيشة، هنالك حيث تبدت الأغصان المُتشابكة في الإضاءة الخافتة كأفاعٍ تتحرك بثقل وبطء على طول الجدران، قبضتُ على النتوءات البارزة من أسفل الجدار وشرعتُ في شدّها، كانت هشّة وسرعان ما انشرخت تحت عزم يديّ. صوت شرخ الورق الذي قددته، بدّد الغُمّة والانقباض الحاد الذي أصاب قلبي منذ أن دخلتُ البيت، قبضتُ على حواف أخرى وأخرى، وكلّما حللتُ الورق من جدار وكشفتُ الصبغة المتقشرة، ملأني ابتهاجٌ عارم.

روح متعجلة

تفقدتُ البيت من الخارج لأكثر من ليلة، كان مهولًا، الإضاءة تصعد من الأسفل لتُعطي تقاطعاتها شكل نجمة، الحديقة تمتد لأكثر من مئتي متر، البيت بواجهاته الزجاجية يُعطي انطباعًا باتساعه. تنتابني الرغبة في أن ألتقي الفنانة التي لم تخرج من بيتها هذا إلا للضرورات المُلحة منذ أكثر من عامين، لكنها على الدوام لا تجيب على الهاتف. زوجها يقول إنّها: «مُنهكة، نائمة، ترسم، مريضة»، في كلّ مرّة ثمّة أعذارٌ جديدة وجاهزة.

هذا الصباح دخلتُ البيت لأول مرّة، شاهدتُ الجدران والأبواب البيض والخزانات الأنيقة المُعلقة ودرابزين الدرج الزجاجي، كلّ شيء مطلي بالأبيض، اللوحات المتجاورة في خط متذبذب تشعُ بألوان مُبهجة. كعوبُ أغلفة الكتب تشرئب من زجاج خزانات المكتبة المُلمعة، تفوح الأرضيّة برائحة الديتول المُعطر بالليمون. وصلتُ في التاسعة صباحًا، كما طلبتْ مني، عندما أجابت على الهاتف بنفسها لأول مرّة ورحبتْ بقدومي.

طوال الأشهر الماضية التي لم تكن ترد على الهاتف بنفسها، جال في خاطري ما كتبته الصحف عن الزوج الذي يُخفي زوجته لأسباب مجهولة، «الفنانة التي يتحدث عنها النقاد.. كيف يجرؤ؟!»

رأيتها تنزلُ الدرج، لم تكن جاهزة كما تصورت، كانت في بيجامتها الحليبيّة التي يحيط بأكمامها ورد صغير، وبنطال البيجامة القصير المطاطي يزم أسفل ركبتيها، ويكشف عن ساقين ناعمتين. أصابع قدميها تخرجُ من النعل الريشي المفتوح، أظافرها مطلية بلون فستقي، شعرها البني بخصلاتٍ مُشقرةٍ ملفوف أعلى كتفيها على هيئة كعكة، كلّ شيء يكشف قدر عنايتها بنفسها. رحبتْ بي بإيماءة من رأسها، لا يبدو أنّها راغبة في المصافحة. أزاحتْ الستارة الكبيرة بضغطة زر من جهاز صغير بيدها اليمنى، رأيتُ الستارة ترتفع لمترين لتكشف عن زجاج شفاف، سمح لكمية هائلة من الضوء أن تخترق الصالة. لم أتمكن من إخفاء انبهاري، الزجاج الشفاف يطل على الحديقة، ولو رفعتُ عينيّ قليلًا لرأيتُ زرقة البحر من بعيد متصلة بزرقة السماء. كمية الضوء انعكستْ على لوحات الصالون ومنحتها حياة جديدة. أشارت الفنانة إلى كرسيين مرتفعين قليلًا، وبينهما طاولة، بدا لي أنّ اختيارها لتلك الجلسة المرتفعة مقصود، لنتمكن من رؤية البحر والحديقة معًا. أصبحنا متقابلتين فجأة، وجهها الخالي من المساحيق يكشفُ صفاء آسرًا لبشرتها، لكن ما إن التقت عيناناً، حتى شعرتُ بأنّ عينيّها مفرغتان من أيّ معنى. طردتُ الفكرة من رأسي عندما دخلت العاملة دون أن تبتسم:

- قهوة.. شاي؟

- قهوة.

عدتُ مجددًا لأتأمل المرأة التي تجلس نحيفة داخل بيجامتها الواسعة والمُوردة، تحركُ يدها اليمنى في خصلات شعرها الملونة بطريقة لافتة، لقد فكّت فورًا كعكة شعرها أمامي، وسمحت له بالانسياب على نصف ظهرها تقريبًا:

- قلتِ إنكِ تكتبين تقارير لصحف أجنبية عن الفنانين؟ هكذا بادرتني بالقول.

وضعتْ العاملة فنجان القهوة أمامي، تلمستُ حرارته بأطراف أصابعي:

- نعم. تقارير. الفنان، حياته، بيته، أعماله. أحول الأمر إلى قصص ممتعة.

- نعم.

ولم تضف أيّ كلمة أخرى. أخذتُ أتأمل اللوحات التي تصطف بأناقة، وميزتُ أنّ الرمادي والأصفر يطغيان على بقية الألوان في معظم اللوحات. وبينما أرتشف القهوة، نزل رجل وسيم يقاربها في العمر. ورغم الشعر الأبيض الذي غزا جانبيّ رأسه وفوديه، فإنّه كان بجسد وحركة لائقة في ثيابه الرياضية تلك. ابتسم لي وهو يراني وجهًا لوجه، بينما كانت الفنانة توليه ظهرها. ضغط على كتفيها من خلفها وهو يقول لنا معًا:

- صباح الخير.

ربتتْ الفنانة على يديه دون التفاتة، قبل أن يسحبهما ويمضي خارجًا.

- هل تفضلين أن نبدأ؟ هل لديكِ أسئلة جاهزة؟

وقبل أن أفتح فمي، نزلتْ ثلاث فتيات جميلات يبدو أنّ اثنتين منهما تقتربان من سن المراهقة، بينما خمنتُ أنّ الأخيرة لم تتعدَ السابعة بعد. الشعر بخصلات ملونة، والقمصان المعقودة أسفل السُّرة، البنطلونات المطوية فوق القدمين، السلاسل المتدلية على الصدر، السماعات في الآذان، الروج الفاتح، العطور الفرنسية، حقائب الظهر اللامعة، الحيوية التي ركضت في أحذيتهن الرياضية، ثم العناق الذي طوق الأمّ الفنانة والقُبلات. ما يزال وجهها في اتجاهي، وهي تغرف القبلات من خلفها والأحضان أيضًا. غادرت البنات الثلاث بصحبة والدهنّ المُنتظِر، لكن الفنانة لم تستدر لهم، لم تلوح بيدها، اكتفتْ بتلك الضغطات الصغيرة والناعمة فوق أياديهم التي أحاطت بها.

أشرتُ بإصبعي إلى أثر الحُمرة على وجنتيها جراء التقبيل، دعكته بلطف براحة يديها، فتوهج وجهها. شعرتُ بخفقان متسارع في قلبي، بينما كانت الفنانة هادئة، لولا أصابع يدها التي تمر خَلَلَ شعرها بحركات مُتعجلة.

- لنعد إلى الأسئلة، البيت هادئ الآن، الجميع في الخارج.

- حسنًا.. كما قلتُ من قبل.. الفن والحياة.

- عفوًا.. منذ متى وأنتِ تعملين في كتابة التقارير؟

- لم أجد وظيفة بعد، ولأنني أجيد الإنجليزية جيدًا، أراسل المجلات المهتمة، وأقبض مكافآت مُتفرقة. لا عمل مُحدد لي.

- أها. جيد. تهتمين بشأن الفن إذًا؟

- لا. أعني ليس الفن وحسب، الطاهيات أيضًا، مصممات الديكور، العازفات، الكاتبات.. تعرفين ما تطلبه المجلات النسائية.

أومأتْ برأسها دون أن تُظهر أيّ إعجاب، بدتْ لي كمن يريد أن ينجز الأمر بسرعة كبيرة.

- حسنًا، يبدو أنّ لديكِ عائلة رائعة.

أردتُ أن أبدأ حواري من هنا.

- نعم عائلة رائعة.

- بيت جميل وذوق آسر، زجاج ينكشف على البحر وعلى الحديقة. إنّ ذلك يمنحكِ الوقت لصنع الجمال.

أكثر ما يغيظ هو أن تتحدث بحماس مُفرط بينما الآخر المواجه لك، ينظر إليك بوجه بارد كقطعة ثلج ومُجرد تمامًا من الانفعالات، والأكثر رعبًا هما تلك العينان اللتان لا تنمان عن شيء محدد.

بدأتُ طرح الأسئلة التي تدور حول البدايات الأولى للفن، ودور العائلة والجامعة، كلّ ما يمكن أن يجعل مشروعها قائمًا ونشيطًا. كانت تجيب باقتضاب، من دون تفاصيل، من دون أن تنظر إليَّ، تدير وجهها للزجاج طوال الوقت، كمن يرقب شخصًا سيأتي بعد حين، ولكنه لا يأتي.

إجابات عامّة يمكن أن يقولها أيّ شخص عن أيّ شيء، هذا ما حصلتُ عليه. أبذل جهدي، أنوّع في أسئلتي لأقبض شيئًا فارقًا منها، لكنّها تغلق الأسئلة دائمًا بروح باردة وفتور قاسٍ.

طرأ على ذهني سؤال مُشاكس، كنتُ قد دسسته عن عمد وسط الأسئلة:

- لنتحدث عن اللوحات المخفية.

شحب وجهها، وبحركة سريعة أعادت لفَّ كعكة شعرها مجددًا فوق كتفيها. بدأتُ أشعر بخفقان قلبها من خلف قميص بيجامتها الحليبيّة.

- من أين تأتون بهذه الأكاذيب؟

تسارع خفقان قلبي أنا أيضًا، لا أدري كيف واتتني الجرأة:

- كان لديكِ مشروع لوحات الريش، كنتِ ترسمين لوحات مُجردة، الريش والأجنحة، استعدتِ كل لوحاتكِ من المعارض وأعدمتها، هكذا كتب النقاد منذ سنوات.

- لا أحد يعرف إن كنتُ أعدمتها أم لا.

- لكنكِ استعدتها، رغم أنّها عُرضت في صالات عرض عالمية، وبعضها تمّ شراؤه.

بدا أنّها ستقول شيئًا جامحًا وهي تحرك رأسها يمنة ويسرة، لكن ثغرها سرعان ما افترَّ عن ضحكة ساخرة:

- هل يمكننا التوقف هنا؟

- يمكننا أن نلغي هذا السؤال لو أردتِ، أرجوكِ أنا احتاج هذا اللقاء، إنّه لقمة عيشي.

صمتُّ قليلًا وسمعتها تنادي العاملة بصوت غاضب، طلبتْ منها أن ترفع فنجانيّ القهوة. لا أعرف إن كان ذلك يعني ضرورة أن أغادر البيت فورًا. بدأتُ أدخل أوراقي والقلم وجهاز التسجيل في حقيبتي ببطء شديد علّها تغير رأيها. وقفتُ وكدتُ أتعثر ناسية مدى ارتفاع الكرسي الفاره الذي كنتُ أجلس عليه. وقبل أن ألقي التحية مودعة، قالت:

- هل شاهدتها؟

- من هي؟

- اللوحات؟ الأجنحة؟ الريشات المتموجة؟

- نعم. منذ سنوات، كنتُ أتردد على الجاليري أنا وخطيبي. أحببتُ اللوحة التي أسميتها «روح مُتعجلة». كان سعرها مرتفعًا بعض الشيء. لقد تمنيتُ شراءها وتعليقها في شقتنا عندما نتزوج. الريشة الصاعدة، كنتُ أريدها حقًّا. أتذكر

جيدًا البياض الشديد الذي تتوسطه الريشات أو الأجنحة المبتورة في الجاليري، ولكنني كنتُ أحبّ تلك اللوحة على وجه التحديد.

صمتتْ قليلًا. كانت تظنني كأيّ صحفيّة، تأتي بأسئلة جاهزة ولا تعرف شيئًا عن تجربتها الفنية.

- كانت أعمالًا بسيطة وسطحية وخائبة.

- لكنهم كانوا يحتفون بها، ينظرون إليها بإعجاب، يقدرونها.

- هل يمكننا التوقف؟ لا أريدكِ أن تنشري الحوار.

مدّت يدها لتنتزع المسجلة من يدي. تراجعتُ بخطواتي إلى الوراء قابضة على حقيبتي وأشيائي.

في اقترابها مني، لاحظتُ التجاعيد الصغيرة تحيط بعينيها وأعلى جبينها، إلا أن بشرتها نضرة وتخلو من التصبغات والبقع، حركة جسدها خفيفة، نعلها الريشي لا يُصدر صوتًا، وجهها نحيل وضامر، عيناها ترمشان بوتيرة أسرع من ذي قبل، رموشها الكثيفة تشكل ظلالًا وتخفي عينيها.

قبضتْ على رأسها بين راحتيّ يديها:

- أرجوكِ، اُخرجي من بيتي.

خرجتُ والغضب يثور في أعماقي، ولا أدري من أين خرجت كلماتي النزقة:

- تلك اللوحة اللعينة، كانت سبب فراقنا أنا وخطيبي، كانت توغل في إيذائنا كلما نظرنا إليها.

خرجتُ وأنا أغلي، وبالرغم من مرور عدة أيام فإنّني لم أهدأ، كانت كراهيتي لها تتفاقم، تلك المرأة التي تحظى بكل شيء، «كيف لها أن تتذمر؟!»، يمكنها كما كانت تتحدث عن الحرية والريش فيما سبق، أن تتحدث عن زوجها الذي يأكل إحساسها بالأمان الآن!

بعد أسبوعين، فاجأتني الفنانة بالاتصال، طلبتْ مني أن نكمل ما بدأناه، ولم أجد نفسي قادرة على صد الرغبة في لقائها مجددًا أو الجلوس في ذلك المكان الوثير. هذه المرّة صففتْ شعرها ولبست فستانًا كحليًّا مشجرًا من الشيفون، أبرز طولها وهزالها الشديد تحت ثنياته الناعمة. فتحتِ الستائر، فدخل الضوء. لم أكن متفاجئة. بدتْ أكثر ارتياحًا لي من المرة الأولى. العاملة لم تستشرني، وضعتْ أمامي فطائر مُحلاة وفنجان قهوة، أشارت الفنانة كي أتذوقها.

لم أكن قادرة على إعادة السؤال القديم، كان لا بد من مناورتها بسؤال جديد. أخرجتُ أوراقي وقلمي وجهاز التسجيل، بينما أزدرد بقايا الفطيرة. قبضتْ يديّ وتلفت يمينًا وشمالًا، وهي ترمش مجددًا بتسارع مخيف، أصابتني قبضتها بقشعريرة هائلة، كانت تقربني إليها لأنظر إلى عينيها، سواد لا قرار له، ظلمة مفزعة:

- لا يرغبون في فكرة الريش.

- من هم؟ من قال ذلك؟ المعرض كان ناجحًا؟ النقاد كتبوا عنكِ.

- إنهم لا يفهمون إلا المعاني الجاهزة والسطحية.

- دعينا نسجل.

أغلقتْ جهاز التسجيل بسبابتها. التفتُّ إلى أصابعها الرقيقة وأظافرها الطويلة المطلية بلون يتماشى مع وريقات فستان الشيفون.

- أريد أن أقول أشياء خارج دائرة النشر.

تلعثمتُ، شعرتُ بالحسرة. إنّها تلعب بي مجددًا، تلعب بوقتي، كدتُ أقبض على مادة لم يسبقني إليها أحد، وها هي تضيعها عليّ مجددًا. ودارتْ على عقبيها دورة كاملة في الصالة. «تلك كانت أجنحتي أنا»، قالت ذلك بمبالغة، وأشارت إلى صدرها بكلتا يديها مكررة كلمة «أنا». مرّت العاملة وأمامها عربة وبها طفلان توأمان.

صحتُ -في حركة لا إرادية- لأغير الموضوع:

- ما أحلاهما!

كانت الفنانة تُعطي ظهرها للطفلين وللعاملة المتجهمة، بينما كانت عيناي تلتقي بعيني الطفلين تمامًا. تأكدتِ العاملة من ربط حزام الصغيرين جيدًا في العربة، ثم غادرتِ البيت من أجل النزهة في الحديقة.

- هل أنتِ حرّة؟

- لا أفهم؟

- أنت حرّة كما يبدو، لديكِ حياتكِ الكاملة الآن. انظري ماذا صنعتُ أنا بنفسي، لقد جلبتُ توأمين إلى الحياة، وأنا أقترب من الخمسين.

- نعم، إنّهما رائعان! أنا سأدخل الأربعين ولم أتزوج بعد.

- تمتعي الآن بالحياة.

- لا أفهمكِ.

- انظري، أنا لا ألمسهما، لا أقبلهما، لا أنظفهما، لا أستوعب بعد وجودهما هنا، لا أستوعب. قال الطبيب: إنّه اكتئاب ما بعد الولادة، ولكنه ليس اكتئابًا، أنا أعرف نفسي جيدًا، سيكملان قريبًا عامهما الثاني، وأنا لا أضع عينيّ في أعينهم، إنّهما كابوسي المدمر.

هزّت رأسها بصورة مضطردة، فخامرني توتر شديد، وهي ترمش بشكل متلاحق مجددًا، وكالعادة تخونني كلمات المؤازرة الجيدة في مواقف من هذا النوع:

- لديكِ عائلة، ألا يبدو ذلك خلابًا؟!

- إنهم يمتصون كلّ شيء، يأخذون كلّ شيء، يأكلون الوقت، يسرقون الأحاسيس، إنّهم لا يتركون أيّ شيء دون أن يدمروه، أنتِ لن تدركي هذا حتى يأتوا.

كنتُ مصدومة وغير مصدقة. إنّها تكذب! أيّ نوع من النساء هي؟ ماذا تفعل هي بالضبط؟ لقد شاهدتُ العاملة تراقب الطفلين، تطهو الطعام، تتحرك بخفة لتجعل الأشياء في أماكنها دومًا، العاملة تفعل كلّ شيء بوجه متجهم، وهذه الفنانة تجلس هنا لتتذمر!

وجدتُ أن لا طائل من بقائنا هنا معًا بعد الآن، نحن لا نسجل حوارًا، أنا أبدد وقتي معها.

نهضتُ:

- عليّ أن أفكر في حوارات مع أناس أكثر جدية.

- كنتِ قد قلتِ في حوارنا السابق أنكِ وخطيبك انفصلتما بسبب اللوحة.. «روح متعجلة».

تنفستُ الصعداء، ووجدتُ نفسي أستدير مجددًا لأنظر إلى عينيها، وأنا أعقد يديّ أمام صدري:

- الأمر ليس من شأنك.

وجدتُ نفسي أتحرك قاطعة الصالة الكبيرة، على أمل أن أخرج من بيتها ولا أعود، لكنها خطفتْ مقبض الباب من يدي، وأغلقته من جديد. «هلا صعدنا إلى المرسم؟». كانت عيناها مليئة بالرجاء والاضطراب في آن، ولا أدري لماذا لم أتمكن من رفض الأمر.

كان هنالك مصعد في ركن من الصالة لم أنتبه له. صعدنا ووصلنا إلى مرسمها الخاص، الذي تطل نوافذه المفتوحة على الحديقة، والبحر هنا أكثر وضوحًا.

- المرسم خانق.. ينبغي تجديد الهواء بصورة دائمة.

- ما الذي ترغبين فيه الآن؟ أنتِ تضيعين وقتي.

- انظري.. «كان هنالك ما يربو على ستة أعمال غير مكتملة، خطوط أولية وحسب».

- لم أعد أشعر بهمة لإكمال شيء، تُخامرني الفكرة وآتي بحماس إلى المرسم، ولكنها تموت بسرعة.

- لماذا؟

- هكذا.. أنا مضطربة الآن، زوجي لا يرغب في أن يصدق الأمر، بناتي يتجنبنني، لا أحد يمكنه أن يتصور أنّ وجود خطوط أولية لست لوحات جالبة لكل هذا الضيق، ولكن صدقيني أرجوكِ، تمر ليالٍ طويلة وأنا أنتحب وأبكي، لأنني منذ سنتين لم أكمل شيئًا، كلّ مشاريعي وأفكاري ناقصة، أبدأ ولا أنتهي من شيء.

- ولكن لديكِ متسع من الوقت والخيال والمؤازرة.

- أنا لا أعتني بأحد الآن، هذا ما قررته، أحضرتُ العاملة لهذا الأمر، ولكن أحدًا لم يعد يهتم بي أيضًا.

- لكن زوجك..

- أعرف. لكنه في الحقيقة لا يفعل أكثر من تجنبي الآن، لم أعد مفيدة لأحد.

كانت تسند رأسها الذي يتجه إلى الأرض بإبهامها وسبابتها، ونشجيها المتواصل يشعرني بقلّة حيلتي إزاء ما تكابده. جلستُ على كرسي مقابل لها تمامًا، شاهدتُ نسمة الهواء الساخنة وهي تعبر خصلات شعرها، شاهدتُ الفستان المشجر يغطي الصندل البني في قدميها، الغيمات الصغيرة والمتفرقة في السماء لم تساعدني على قول شيء مُحدد، لم أتمكن أيضًا من الشعور بالرأفة أو التعاطف، إنّها بهذا الانكسار، لأن ست لوحات لم تكتمل! أي سبب للتعاسة هذا؟!

- هل لي أن أطرح سؤالًا جادًّا؟

رفعت رأسها ووضعتْ عينيها في عينيّ:

- بما إنكِ بكل هذا الإحباط والانهيار، لماذا قبلتِ أن نتقابل؟ لماذا كنتِ مرحبة بوجودي؟

- مرّت أشهر لم يتصل بي صحفي واحد، ولم يُعرض عليّ إجراء حوار أو المشاركة في معرض، صحيح كان زوجي يجيب على الاتصالات كلها، ويعتذر للجميع برغبة مني، ولكن عندما لم يعد أحدهم يتصل أو يسأل، تضاعف إحساسي بأنّي أذهب إلى النسيان، ومن ثم اتصلتِ أنتِ، قلتُ ماذا لو استطعت أن أستعيد شيئًا؟ ماذا لو تمكنا عبر الكلمات من استعادة إيقاعي؟

- إذن أنتِ تقومين باستغلالي وإهانتي على هذا النحو.

لا أدري ما الذي أوصلنا إلى هذا الحديث المتشنج الآن. شعرتُ بأنّ المكان محاط بوهج من الغرابة، وأنّني أرغب في أن أنسلَّ وأهرب بعيدًا جدًّا عن وجهها الموشك على البكاء.

- أنا لا أهينكِ، أنا أقول بأنكِ مفيدة، لقد أعدتُ الاتصال بك لأنكِ حرضتِ شيئًا في داخلي، أشياء مُطفأة. عليكِ أن تساعديني، علينا أن نتحدث.

- لقد جئتُ من أجل أن نتحاور، وها أنا أتورط معكِ في عواطفكِ غير المبررة، أتورط مع المرأة التي دمرت عواطفي! ألا يبدو ذلك مضحكًا؟

مسحتْ الفنانة دموعها، واستعادت شيئًا من رباطة جأشها:

- ها أنتِ للمرة الثانية تشيرين إلى أنني فعلتُ شيئًا مشينًا!

شعرتُ بإرهاق شديد بينما تيارات الهواء الساخنة في هذا الصيف اللاهب لا تكف عن اللعب:

- لم أكن أظن أن المسائل ستتعقد على هذا النحو، أراكِ من الخارج امرأة متحررة، كلّ صورك تُظهر جمالك وأناقتك، زوجك الذي يحيط بك، بناتكِ المحبات.. ثم هذا البيت، وفوق هذا كنتِ فنانتي المفضلة، تلك الآراء الصلبة التي كنتِ تقولينها بجرأة ثم تمضين دون اكتراث لسيل الانتقادات التي تنالكِ، أنتِ لا تعرفين ماذا تعنين لي، لأنّني كأيّ أحد من الذين يتابعونكِ، أنا لستُ أكثر من فرد من جمهورك، لطالما

جلستُ في مقهى الجاليري أنا وخطيبي، أصرُّ على أن أجلس إلى الطاولة المقابلة للوحتك «روح متعجلة»، تلك الريشة السابحة في البياض، تلك الألوان الصاخبة والمتداخلة والخلابة، لطالما كنتُ أقول عندما يصبح لديّ مال سوف أشتريها، سأعلقها قبالة سريري. لكن خطيبي كان يراها لوحة عادية، ولذا اختلفنا أنا وهو. يقول إنّه لا يوجد أبعد من ريشة، ولكني كنتُ أرى طبقات أبعد في تموجاتها وتدرجاتها اللونية. قلتُ له: الريشة تصعد إلى السماء، ولكنه أصرّ على أنّها تهبط. في ذلك المساء تشبث كلّ واحد منا بوجهة نظره، أنا أراها تصعد، وهو يراها تهبط، ومنذ تلك الليلة لم نتحدث. قلتُ له: لا يمكن بأيّ حال أن أعيش مع رجل لا يقدر الفن. ظننتُ أنّه كأي خلاف سيجعلنا نعود، بعضنا لبعض بعد أيام من الزعل. لكن الزعل طال بيننا، وافترقنا. كان يراني تافهة ومتعجلة في إصدار أحكامي.

الغريب أنّ اللوحة اختفت أيضًا، سألتُ من اشتراها؟ لكن ثمّة من تكتّم على الأمر، ولا أدري لماذا بدأتُ بمراقبة بيتكِ عدة ليالٍ، ومن ثمّ أردتُ أن نتحاور. أنا أيضًا قصتي معكِ ناقصة، إذ إنكِ بعد حادثة اختفاء لوحاتك، لم تقولي شيئًا مهمًّا، إجاباتك مكررة ومقتضبة وبائسة، ثمّ لا شيء إلا التبدد والاختفاء.

نظرتْ إليَّ الفنانة بتعجب وأنا أضيف:

- هل يمكنك أن تجيبي الآن، هل كانت الريشة تسقط أو ترتفع؟

- كنتُ أكثر حيرة منكما وأنا أرسمها، لقد تطلب مني رسمها سنوات عديدة. في لحظات ضعفي وهشاشتي وقرفي كنتُ أشعر بها تهوي في البياض، أدفع الشُّعيرات الصغيرات لتنظر منكسرة إلى الأسفل، أدفعها لأن تغرق معي في ظلمتي، وفي لحظات نشوتي وهياجي كنتُ أجعلها تصعد، أغيّر اتجاه الفرشاة فأرى الشعيرات تنظر إلى أعلى، تتوهج. ولذلك تظهر تلك الضربات المتعاكسة من دون قصد.

صمتنا لفترة طويلة، لم يعلق أحدنا. ثم وجدتني أقف فجأة:

- أفضّلُ العودة إلى البيت.

- هل يمكنكِ البقاء؟ هل يمكننا التحدث؟ أنا لا أتحدث لأحد، لا صديقات، لا أحد. زوجي يعود متأخرًا ومتعبًا.. لم أستطِع يومًا أن أكون أمًّا جيدة ولا حتى فنانة. أنا..

- لقد جئتُ لعمل محدد، أنتِ تطلبين مني وقتي وحياتي، أنا لستُ مثلكِ جالسة في قصر ومتململة، لديّ ما أنجزه دومًا.

- كم أشتاق إلى هذه الروح! لم تعد موجودة داخلي، منذ رأيتكِ وأنا أتمنى أن تُحدثي في داخلي بعضًا من العدوى.

بدتْ ضعيفة، وحزينة، وممزقة من الداخل، وتستحق الشفقة.

نزلتُ بسرعة فوق الدرج، نزلتْ خلفي بنفس السرعة، شعرتُ أن هذه المرأة معتوهة، وأنّها لن تتركني أبدًا. خففتُ من سرعتي على الدرج، كان الزوج يدخل آنذاك من باب الحديقة، شاهدته من

الزجاج ينحني على التوأمين يقبلهما، والبنات الثلاث خلفه يتعلقنّ بذراعيه، كأنّما هم جميعًا في لوحة متحركة، لوحة لا تريد الفنانة أن تنظر إليها أبدًا. عدتُ لأنظر إلى عينيها.. أيُّ غشاوة كئيبة تجعلها لا ترى اللوحة الحية التي تتمشى فيها حرارة الألوان في الخارج؟

أمسكتْ يدي مجددًا وهي ترجوني، كانت العاملة قد دخلت فورًا عائدة من النزهة بعربة فارغة، شاهدَتني أحاول سحب يدي من تشبث الفنانة، ولكنها لم تحِر جوابًا، تجاهلتني، بينما تناوب أفراد العائلة على نفخ الهواء في ماء الصابون لخلق فقاعات متطايرة، دفعت الطفلين إلى ركض لا نهائي. لكن لم يكن لهذه العائلة أن تراني من وراء الزجاج العاكس كما لم يكن لها أن ترى دموع الفنانة وارتعاشاتها المتواصلة، كانت الأعين تحدقُ إلى حياة الفقاعات القصيرة، التي لم يحدث أن نجت مرّة واحدة من حادثة الفرقعة.

- هيا سأريكِ أين خبأتُ اللوحة.. «روح متعجلة».

سحبت يدي دون حول مني ولا قوة.

مشينا في ممر طويل، ثم ولجنا غرفة نوم لشخص واحد، يبدو أنّها هجرت زوجها أو هو الذي هجرها، لستُ على يقين مَن هجر الآخر.

- أنا أنام هنا.

- هنا؟

بدا أن سؤالي استنكاريٌّ أكثر من اللازم.

ثم انتبهتُ للوحة، الريشةُ الصاعدةُ المعلقةُ فوق السرير، كانت ريشة عجيبة، ألوانها متداخلة بين الزرقة والصفرة واللون الرصاصي والحليبي الفاتح، وكأنّما كانت ألوان طائر يطير من دون وجهة محددة.

توهج وجهها فجأة:

- سوف أعطيكِ هذه اللوحة، إنّها لكِ، خذيها!

بقيتُ متعجبة ومذهولة، وأنا أراها تصعد فوق سريرها وتتناولها بين يديها.

- إنّها لا تعني لي شيئًا ولكنها تعني لكِ.

لا أدري كيف تسير الأمور بهذا الإيقاع الآن، جئتُ من أجل حوار صحفي، جئتُ وفي داخلي نوايا انتقاميّة بسبب لوحة أحدثتْ شرخًا في حياتي، وها هي اللوحة تصبح لي.

- فقط لديّ شرط، شرط واحد، أن تمري هنا، أن نتحدث وحسب.

ناولتني اللوحة بين يديّ، الألوان عن قرب تضج بحيويتها. عاد إلى وجهها ابتهاجها، لم تعد ترمش بالسرعة السابقة.

خرجنا من الغرفة مشينا في الممر اللولبي، هذه المرة لم تمسك يديّ، تركتني أخرج. خرجتُ وأنا أتأبط اللوحة، أومأ إليَّ الزوج بابتسامة صغيرة، والبنات المبتهجات أشعرنني ببعض من الامتنان، ربما لأنّي كنتُ بصحبة أمّهن. بينما استمر الصغيران في ملاحقة فقاعات الصابون الطائرة.

في السيارة نظرتُ إلى اللوحة من جديد، بدا لي أنّ الريشة تسقط في قعر من الظلمات ولا ترتفع أبدًا.

مئزر أبي يدمى

يشحذ أبي سكينًا كبيرة، وينظر إليّ من طرف عينه الضيقة، بمئزرٍ يدْمى على الدوام، يُلطخ بيتي الجديد الذي لم يدخله يومًا، يلطخ الصوفا، الستائر، المفارش، أغطية المخدات، أرضية المطبخ، وغالبًا ما ينتهي الأمر بإيقاع مُتسارع لصوت شحذ سكينه على قضيب المِسّن.. فأصحو غارقة في عرق بارد.

حثني عامل الحديقة الباكستاني «أديب»، كي أقترب لأريج شيئًا، بوجه مخطوف وفزع بائن. بالتأكيد هو لا يعرف «كريس» كما نعرفه نحن، ولكنه أدرك -في كلّ يوم اثنين يأتي ليشذب الحديقة- أنّ «كريس» يعني شيئًا لنا جميعًا بطريقة أو بأخرى. شاهد ركض ابني الصغير خلفه مرارًا في الفناء، شاهد بحثهم الدائم عنه ما إن يغيب عن الأنظار.

انتفض جسدي وأنا أتبع المكان الذي تشير إليه سبابة أديب، كان «كريس» يبسط جسده، وافر الشعر فوق العشب الاصطناعي في الحديقة، كان مبلولًا جرّاء ليلة ماطرة، ظللتِ المياه تقطر من

شاربيه الرفيعين، شعره الكثيف فرقته جداول الماء الصغيرة التي عبرته طوال الليل، بقي مستلقيًا على جنبه دون حراك، فاتحًا عينيه اللامعتين، عيناه مفتوحتان بهلع، كأنّه كان في نزالٍ طويل مع الموت، ذقنه مُبقع بآثار قيء. نظرتُ إليه، بسطتُ أصابعي على صدري، وتأوهتُ بجزع. حثني أديب على التقاط صورة، «ينبغي على أبنائكِ أن يتأكدوا أنّه مات حقًّا»، وأخذ يومئ برأسه بشكل متكرر. ولا أدري أيّ حركة آلية دفعتني إلى التصوير، صورته من عدة زاويا، ولكنه لم ينهض ليتعلق بقدميّ.

دخلت سيارتي كأني أحتمي من شيء ما، كانت لديّ رغبة جادة في أن أجهش بالبكاء. ماذا سأقول للأبناء الآن؟ لكن أديب جاء مجددًا وطرق زجاج النافذة، أفزعني الرفش الطويل الذي يقبض عليه، أنزلتُ زجاج النافذة، «أين ينبغي أن أدفنه مدام؟ أخشى لو أنني دفنته في الحديقة أن تخرجه القطط الضالة، إنّها تتبع الرائحة دائمًا»، ثم أشاح بوجهه وشخصت عيناه بعيدًا، «ما رأيكِ مدام أن نحفر له حفرة خارج الفناء؟ إنّه يستحق أن يدفن». قال كلاما كثيرًا ملوحًا بالرفش، مُتحدثًا بجدية بينما تدور في رأسي الأفكار. أومأتُ برأسي موافقة عندما أشار بسبابته إلى مكان رآه ملائمًا. بدأت قطرات المطر تتراشق بنعومة على الزجاج الأمامي لسيارتي، تذكرتُ الماء الذي ملأ شعر «كريس» الكثيف فالتصق بلحمه، وعاد السؤال الموجع: «ماذا سأقول للأولاد الآن؟!».

كانوا في بيت الجدة في القرية البعيدة، كنتُ أفكر كثيرًا في الكلام

الذي سأقوله لهم، «الخطأ أننا نأتي بحيوانات لتربيتها، ينبغي ألا نفعل ذلك إن كنا غير مسؤولين كفاية». فكرتُ في أنّ كلامًا كهذا سوف يجعل أجساد أولادي الأربعة ترتجف تحت وقع كلماتي. غصصتُ بالدمع ولم أتمكن من الاتصال بهم. فكرتُ مجددًا في جملة أخرى: «فضلتم قضاء العطلة في القرية، وتركتم كريس يموت هنا.. هاااه».

ولكن هذه ليست الحقيقة. أنا أبعدتُ الأولاد لأنّني رغبتُ في صيانة البيت، أنا طلبتُ منهم الذهاب إلى بيت الجدة، ولم أتمكن من العناية بكريس كما ينبغي، أنا أتحمل وحدي مسؤولية موته!

عندما دخل كريس حياتنا كان صغيرًا جدًّا، اصطحبناه إلى العيادة وأخذ الحقن، كان نظيفًا ويقضي حاجته في المكان المخصص، ويحبّ اللهو كثيرًا مع الأولاد. كان يتلقى محبة كبيرة، ورغم ذلك كان يرغب بشدة أن يمرر جسده قرب ساقيّ. كنتُ أتحاشاه كثيرًا، وأتحدثُ معه: «أنا أطعمك وأسأل عنك في غيابك فقط.. لا أحضان لا تلامس لا لعب»، ولكنه بقدر ما كان يتعلم الحيل والألعاب يومًا بعد يوم، لم يكن يفهم صدِّي له أبدًا. كان أولادي يرغبون بقوة في أن أحمله يومًا بين يديّ، أن أحضنه، أن أسمح لجسده أن يستلقي فوق حجري. لقد تمازحوا معي مرارًا بهذا الشأن، ألقوا به عليَّ، سمحوا لمخالبه أن تخمش شحمة أذني. كنتُ مشغولة بضحكات أولادي أكثر من انشغالي بكريس، لا أهتم به، لا أسأل عنه إلا إذا خرج من البيت ولم يعد بعد مرور ساعات، ألقي اللوم على الأبناء الذين لا يهتمون بواجب صغير كهذا.

كنتُ أقلق من قطة الشارع المتوحشة السوداء التي تتحرش به من حين إلى آخر، قضمتْ مرّة ساقه، وتركته يدمى، وكان أصغر من أن يدافع عن نفسه، شعرتُ بغضبٍ بالغ، كأن أحدهم ضرب ابني. أخذته من فوري إلى العيادة كأمّ قلقة، ثمّ أعطيتُ ابني الأكبر مراهم ورباطًا، ليعتني ببقية المهمة. لم أقترب منه، لم أنحنِ عليه، لم أنظر إلى عينيه المتوسلة.

عندما غرس ابني الأصغر يديه في شعره الكثيف، قال: «ينبغي أن يكون له اسم»، وعلى غير العادة اتفق الجميع أن يكون اسمه «كريس». لكن هل كان على كريس أن يموت ليفتح ملفًّا قديمًا للرعب الخفي؟!

والدي كان جزارًا تقليديًّا، ورث مهنته أبًا عن جد، وكنتُ أنا أصغر إخوتي، اصطحبني أبي مرّة معه إلى مكان عمله، بعد أن قالت أمّي: «ابنتك لينة القلب»، وكان ذلك في سياق الشتيمة وليس الإطراء.

أركض في الحقل خلف الفراشات، وأحمل النمل على يديّ كي لا تدعسه الأرجل المُتعجلة. كنتُ أصادق النعاج الصغيرة، وأرضع التيوس التي ترفض أمهاتها إرضاعها في قناني رضاعة إخوتي القديمة. قال أبي بصرامته المعتادة: «ستذهبين معي». رافقه إخوتي مرّات عديدة، وأنا لم أكن لأفعل.

في المزرعة تتحلق حظائر الدجاج والماعز والأبقار والعجول حول غرفة الذبح. جرّ العاملان المساعدان لأبي عجلًا صغيرًا

وطلب مني أن أسقيه الماء. سقيته الماء ومسحتُ جسده حتى اطمأن لي، ثم شهر أبي سكينه، وطلب مني أن أنظر إليه. قبض العاملان على قوائم العجل الأربعة، وظلت عيناه المتلألئة تستنجد بي.

جزّ والدي عنقه، بعد أن سمّى وتشهد، وكأن أحدهم جمدني فلم أقدر أن غلق عينيّ، شلال دماء انبثق من كل مكان، حتى لم أعد أرى شيئًا وسقطتُ مغشيًّا عليّ. كان آخر ما أتذكره، عيناه المرعوبتان المستنجدتان وخواره الأخير، الرفسات التي ما لبثت حتى تباطأت. منعني أبي أن أغلق عينيّ، طلب مني أن أشاهد فوران الدماء الساخنة. كانت عيناي تحرقاني، وأشعر بوخز كثيف يُنمل جفنيّ، ولكني لم أغمضهما أبدًا.

في الأسابيع التالية لم يخرج صوتي، لم أتحدث إلى أحد، وما إن يكلمني أحدهم حتى أنتحب. قالت أمّي كلامًا عجيبًا. سألتني أسئلة، من قبيل إن كان هنالك من لمس جسدي، جسدي الهش المنهار بالبكاء، ولم أكن أجيب. وتجاذبت أمّي الخياطة، التي تحيك ملابس نساء القرية، وأبي الجزار قصّة. ألّفا قصة عني أفزعتهما كثيرًا، وأحاطاني برقابة شديدة بسبب ما توهماه عني. تقول القصّة: «هناك من مسّ البنت». كنتُ صغيرة وجسدي نحيل. اصطحبتني أمّي إلى طبيبة القرية المجاورة، كيلا يعرف أهالي قريتنا عن الخطب الذي أصابني. طلبت فحصي. ولم أكن أفهم أيّ نوع من الفحوصات ذاك. أردتُ أن أخبر أحدهم بأنّ العجل الجافل يركض كل ليلة في أحلامي، وأنّ دمعته تغرقني، وأنّ صوت سكاكين أبي، وهي

تُشحذ فوق المسن تنمو كضجيج في رأسي، وأنّ مئزر أبي يُلوثُ كلّ شيء.

اطمأن والديَّ عقب ظهور نتيجة الفحص، من هزّة رأس الطبيبة التي أفصحت عن النفي.. لم يقترب أحدهم من غشاء شرفهم العائلي!

بعدها لم أتذوق اللحوم. كان أبي كلما عاد حاملًا فخذ نعجة، أو أكباد العجول ورؤوسها أتقيأ، وأبقى أتقيأ لوقت طويل. كنتُ أزداد نحافة، وجسدي لا يبزغ، كلما كبرتُ ضمرتُ أكثر، وجه ممصوص، عظام بارزة.

قبل ليلة من موته، كان كريس يتقيأ أيضًا، يتقيأ شيئًا أخضر اللون، وكانت عيناه مغمضتين، وجسده منكمشًا. لقد كان متمددًا على سريري، كان عليَّ أن أبعده، كنتُ مرهقة. طوال النهار أراقب عمال الصيانة جوار عملي، لم أكن أعرف أنّه يحتضر وأنّه كان ينتظرني. لم يكن يريد أكثر من أن يضمه أحدهم. صباحًا وجدتُ قيئه الأخضر في أكثر من مكان. هرولتُ غاضبة، طلبتُ من العاملة أن تنظف، وأنا أصيح: «قرف!».

في غياب الأولاد، كنتُ مهووسة بصيانة البيت. كان صوتي يعلو ويهبط وأتحدث إلى العمال، كان «كريس» يركض ناحيتي ما إن يستدل على رائحتي، قال ابني الأوسط: «إنّه يعرفنا جميعًا من روائحنا، أصواتنا، لقد لمس أجسادنا ليعرفنا.. لكنه لم يلمسكِ بعد».

أتجاهله، ولكني لا أنسى أن أطعمه، «الطعام فقط يا كريس، لا شيء آخر»، ولكنه كان يتوق إلى أن يحك جسده براحة يديّ، يتوق إلى اللعب، «لا وقت لديّ، هنالك عمل في الصباح، عمل في المساء، هنالك الاتصال اليومي بالأبناء للتأكد من صحتهم، ومن قيامهم بواجباتهم على أتم حال، هذا كل ما يشغلني، لا يمكنك أن تكون عبئًا إضافيًّا».

كنتُ ألعب دومًا في المزرعة، لا أعرف كثيرًا مما يدور في غرفة الذبح، لا أعرف كثيرًا مما يدور في غرفة تفقيس البيض. أُرضِعُ العجول الصغيرة التي تذبح أمهاتها باكرًا، يتعلقن بي وأتعلق بهن، لم تجمعني صداقات في المدرسة، فأكثر ما أجيد التحدث عنه هو عجولنا وأبقارنا ودجاجاتنا. ورغم أننا في قرية واحدة، فإنّني لم أشعر بشيء يجذبني إلى الفتيات، لا شيء على الأطلاق. أعود وأتحدث للعجول عن كلّ ما يدور في المدرسة، كنتُ أخبرهم بكلّ شيء، كانت التماعة أعين البقرات مواساة لم تقدمها أمّي إليَّ يومًا، ولكن أيّ حظ تعيس أن يكون الإنسان ابنًا لجزار؟!

وعلى عكس إخوتي، لا أتذمر من حلبها وإطعامها وجلب الماء إليها. لكن من قال: «إنّها لا تقدر الصنيع»؟ أمّي قالت ذلك، «سترفسكِ البقرات يومًا»، لكن البقرات لم تكن ترفس إلا تحت سكين أبي.

الأكثر فزعًا أن تكون مسؤولًا عن موت حياة ما، مهما تبدت ضآلتها، وهشاشتها. كان «كريس» يُصدر صوتًا، يخرخر، قال ابني

الأكبر: «إنّها تفعل ذلك عندما ترغب في المداعبة والملاعبة». ولكن عليَّ أن ألوم أبنائي لأنّهم لم يخبروني بأنّها تخرخر أيضًا عندما تكون مريضة وتطلب المساعدة، لقد تجاهلتُ أنينه الذي كان يصدره في الليلة السابقة لموته. يقول ابني الأوسط: «القطط السيامية ثرثارة بطبعها، علينا أن نفهم إشاراتها المتلاحقة». والحقيقة لم أكن أنتبه لأكثر من الفوضى التي أحدثها في الصوفا الجديدة، لقد خدش انسجام النسيج الثمين، وأدركتُ وقتها أهمية قص أظافره، ولكن لم أتمكن من شيء إزاء الأشياء التي أسقطها من الرفوف. قال أبنائي: «إنّه وحيد ويرغب في أن يتسلى»، وكان عليَّ أن أقدر وحدته وفزعه وخرخرته. صاد كريس مرّة وزغًا من المطبخ وتركه أمامي، فتعالى صراخي. قال الأولاد: «إنّه يتقرب منكِ بالهدايا يا ماما»، وتضاحكوا وتشقلبوا على الأرض.

لو كان أبي على قيد الحياة الآن، وشاهد لهاث أحفاده وراء قط سيامي، لو شاهد لهفتهم، أيّ غضب كان سيحل بنا جميعًا؟ لكن أبي غادر الحياة أبكر مما ينبغي.

شعرتُ ببيتي يضيق عليَّ، رغم أنّ العمال كسروا الجدران الفاصلة بين الصالة ومجلس النساء، وصار المكان أكثر اتساعًا، تأكدتُ أنّني مهما تبدتِ المباهج الكثيرة في حياتي الجديدة، فلن أتجاوز مئزر أبي وسكاكينه ورائحته.

عندما جلستُ في حوش منزلي، أتأمل رهافة عصافير الدوري، وهي تمرق عائدة إلى أعشاشها في أسراب كثيفة، رفعتُ سماعة

الهاتف، واتصلتُ ببيت الجدّة، أخبرتها بأنّني أريد أن أكلمهم في أمر مهم.

لكن أصواتهم المتلهفة، كلماتهم المتلاحقة، منعتْ كلماتي الغاضبة من أن تخرج إلا مختلطة بالدموع والحشرجة.

تمزقُ النُّبل

مكتبة
t.me/soramnqraa

اتصلتْ بي أمّي في السادسة صباحًا. ارتعشتْ يدي قليلًا، فليس من عادتها أن تتصل باكرًا إلا لخبر سيئ. أبلغتني بوفاة والد وداد. احتجتُ إلى أجزاء من الثانية لاستعادة وجه وداد التي استمرّت صداقتي بها حتى المرحلة الإعدادية، لكني لم أفلح إلا في تذكر ملمح مشوش من وجهها. ثمّ وبشكل مباغت تمكنتُ من تذكر وجه والدها ببياضه اللافت وشعره المصبوغ على الدوام، وعينيه اللتين تشعان حيوية ولحيته المهذبة. كان يبدو دومًا أصغر سنًّا من أمّها. صوّر لي خيالي في طفولتي البعيدة أن تموت والدتها مكفهرة الوجه، مزمومة الشفتين، قليلة الكلام، صارمة الطباع قبل أن يموت والدها الذي يُطلق ضحكاته ونكاته فنسمعها من غرفتنا البعيدة عن مجلس الرجال. قاطعت أمّي شرودي بسؤالها إن كنتُ مهتمة بمرافقتها لأداء واجب العزاء؟ وجدتُ نفسي أبدي موافقتي. في الحقيقة أنّ سؤال أمّي قلما يكون مقصده انتظار موافقة مني لا سيما في أمور كهذه.

«جدتي وجدتها بنات عمومة»، هكذا كنا نُعرف أنا ووداد علاقتنا لكل من كان يسأل عن القرابة التي تجمع بيننا، في مُضيِّنا بين مزارع جيراننا في سنوات عمرنا الأولى. فذلك النوع الملتبس من القرابة جعلنا نلتقي بمعدل مرتين أو ثلاث مرات في السنة، لو لم تحدث مناسبات أخرى تجعلنا نرى بعضنا بعضًا أكثر، فالمسافة بين قريتينا قبل تعبيد الطرق كانت تبلغ أربع ساعات متواصلة.

يتصل والدها على هاتف البيت قبل موعد قدومهم بليلة واحدة، الأمر الذي يجعل أمّي تلهث منذ الصباح الباكر وراء تجهيز كل ما تطلبه تلك الزيارة.

يعقبُ اتصال والد وداد اتصال أمّي بجارنا شغيل، تقول له جملة لطالما تفاهما عليها: «باكر أبغاك تعق الراس». يأتي جارنا شغيل بعد صلاة الفجر ويختار أسمن شياه أمّي من حظيرتنا، وبعد أن يتأكد من خلو رحمها من الأجنة يقطع الرأس مُطمئنًا، يسلخ جلدها ويغسل أجزاءها في قدر معدني كبير مزود بحلقتين على جانبيه، تُسهلان عليه رفع القدر على النار التي أشعلها من حطب السدر.

في الليلة التي يصلنا اتصال والد وداد، لا أتمكن من النوم لشدة ابتهاجي، أجلس وأكتب إليها الرسائل، أرسم لها شخصيات جديدة شاهدتها في المجلات أو في مسلسلات الكرتون، وأفكر مليًّا في الهدايا التي يمكن أن تخلب لبّها. غالبًا ما أشتري لها ملصقات الدفاتر الملونة بينما تفضل هي أن تحضر لي معها مقابض الشعر مع

تاج. كانت ترغب في أن تراني دومًا ألبس التاج فوق شعري فاحم السواد. وكنتُ ألبسه من أجلها رغم أنّه يُقيدني ويثقلُ رأسي.

وعلى نقيض أغلب الضيوف الذين يأتون لزيارتنا بعد العاشرة صباحًا، فوالد وداد يفضل الخروج من قريتهم بعد صلاة الفجر. أخبرتني وداد بأنّهم في مواسم الشتاء التي يتأخر فيها الشروق يضطرون إلى أن يصلوا صلاة الفجر في الطريق لضمان أن يكونوا في بيتنا بين السابعة والثامنة صباحًا. وكان على أمّي أيضًا أن تُحمم جسد جدتي وأن تغسل شعرها فجرًا، فجذر استمرار العلاقة بين العائلتين مرده الجدّة التي تسكن بيتنا، فرغم تدهور ذاكرتها ونسيانها لأقربائها ينبغي أن تبدو في هيئة جيدة في يوم كهذا.

لم تكن جدتي تقبضُ على خيط دمعها بينما بنت عمّها جدّة وداد المتحلية برصانتها واعتدادها تضغط على يدها وتكرّ عليها حكاياتهما المشتركة في حيل الغافة، كأنّما ثمّة ما ينعشُ شيئًا عميقًا بينهما. أشعر بذلك عندما تقبض جدتي على يد ابنة عمّها بيد وتضغط بالأخرى فوقها، بينما لا تفعل ذلك مع ضيوفنا الآخرين.

لطالما كان مجيئهم الباكر يفوِّتُ علينا فرصة تناول الإفطار أنا وإخوتي. يتوجب علينا أن نصحو وأن نرفع فراشنا وأن نكنس الغرفة قبل وصولهم. لم تكن أمّي تقبل تذمرًا من أي نوع في حدث استثنائي كهذا. لدينا مجلس للضيوف لكنه مخصص للرجال ولذا تُفرغ أمنا غرفتنا لتصير غرفة لاستقبال النساء.

كما أنّ جيراننا ما كانوا ليفوتوا مناسبة من هذا النوع أيضًا. يأتي

الرجال قبل ذهابهم إلى صلاة الظهر بكثافة ليسلموا على ضيوفنا وتنضم جاراتنا إلينا، يأتين وبين أيديهن فاكهة أو تمر أو سخانة قروص وعسل وبلاليط. يفعلن ذلك ليخففنّ على أمّي المشقة التي تنتظرها. لكن أمّي تبدو مضطربة وشديدة الغضب، تتأكد من تقديم الضيافة بين مجلس الرجال وغرفة النساء على أكمل وجه كل لحظة، ورغم أنّها تجامل الداخلات والخارجات بتحريك يديها أو برفع طرفي فمها كاشفة عن ابتسامة مستعارة فإنّ ذلك لم يكن ليخدع قدرتي على تبصر الضجيج الذي يعتمل فيها.

في الليلة السابقة على وصول ضيوفنا، توجه أمّي عديدًا من التعليمات الصارمة إلى إخوتي الذين سيجلسون رفقة الضيوف في غياب أبي. كيف عليهم أن يجلسوا وأن يتحدثوا، ومتى تدور فناجين القهوة، كان صوتها يكتسبُ شيئًا من الصرامة ونظرتها تشي بتحدٍّ غامض، حتى إنّ إخوتي يجفلون ويهزون رؤوسهم بالموافقة على كل ما تقول من دون أن يعترضوا.

ما إن تدور القصص برفقة صحون الفاكهة حتى تركض أمّي لتتأكد أن شغيل يطهو الشياه ويُنضجها على نحو جيد. تنبهه: «لا تعق العيش غير قبل الصلاة بشوية» كانت تريد أن تضمن أن يُقدم الطعام إلى ضيوفها ساخنًا. في ذلك اليوم نتجنب أنا وأخواتي التحدث إلى أمّي أو معارضتها في شيء، نركضُ معها، نحملُ مما تحمل ونجلس متى ما جلست، نتحول إلى آذانٍ صاغية وأيدٍ لاهثة، ليمضي اليوم بيننا على أفضل ما يمكن.

عندما ماتت جدتي انقطعت علاقة العائلتين، لكن أمّي حافظت على اتصالات نادرة بينها وبين جدة وداد ووالدها تقديرًا للقرابة الخافتة بيننا. اختفت الرسائل والهدايا والتذكر بيني وبين وداد ولم نعد نعرف إحدانا عن الأخرى شيئًا.

عندما أخبرتني أمّي بوفاة والدها صباح اليوم، شعرتُ بمشاعر غامضة!

قدتُ السيارة رفقة أمّي في الطريق المعبد، فلم أحتَج إلى أكثر من ساعتين إلى قرية وداد.

وآنذاك أخذت أمّي تكرّ شريط ذكرياتنا مع هذه العائلة بحزن جارف، حاولتُ مجددًا تذكر وجه وداد، لكن كلّ ما كنتُ أقبضُ عليه لمعان أسنانها مع بياضها المشوب بحمرة. قالت أمّي بأنّ الزواج يُغير شكل الفتيات وطباعهن. ولذا لم يكن عقلي ليهدأ في محاولة الإمساك بشيء منها على نحو من الدقة. لكن وجهها يسيل ويختلط بوجوه أخواتها السبع في كل مرّة.

نسياني لوجهها كان ينم عن شيء مُزعج جدًّا، كما أنّ خوفي من تعزية الشخص الخطأ دفع أصابعي إلى تعرق مُباغت. قالت أمّي: «تزوجت وداد وهي في الإعدادية، في نفس العام الذي توفيت فيه جدتك، أبناؤها الآن أطول منها». لقد ترددت أمّي على زيارتهم بشكل متقطع.

وصلنا خيمة العزاء. الأطفال الذين لا يدركون ماهية الموت

يتراقصون حولها. أخذ يلهو بعضهم بصنابير الماء المجهزة لغسل الأيدي بعد تناول الطعام. لكن لم يكن لشيء أن يُهدئ من تدافعهم الحيوي ولا حتى زعيق الأمهات.

وعلى نحو مباغت شاهدتُ سيارة بيك أب حمراء ومعطوبة، حتى أنّ دواليبها مُفرغة من الهواء، كانت منتهية الصلاحية مركونة بإهمال تحت سدرة، وكأنّها ليست أكثر من قطع غيار، فانبثقت ذكرى بعيدة. «كريل» البيك أب الأحمر المُحمل بالفواكه والهدايا. كانت تصلُ إلى أمّي عديد قطع الثياب والعطور والبخور في ذلك البيك أب. لكن تلك الهدايا كانت تُحزنها إلى درجة لا يمكن لأحد تصورها، فقد كانت تجد أنّ من الصعوبة بمكان أن ترد إليهم شيئًا يسيرًا مما يحضرون لنا. وعندما كنتُ أسأل وداد إن كانوا أغنياء إلى هذه الدرجة، كانت تُخبرني بأنّ والدها يبيعُ من شياههم لتتمكن أمّها من شراء الهدايا لأمّي. الأمر الذي كان يصيبني بصدمة. عندما حكيتُ لأمّي شعرتْ بتأثر شديد وقالت لي: «إنّه كرم غير محدود من قِبلهم»!

كنا نحرص على أن نقف جوار البيك أب الأحمر قبل انصرافه لتأكدنا أنّ والد وداد سيترك في يد كلّ واحد منا مبلغًا من المال، يُعادل ما يعطينا إياه والدي في شهر كامل، ولذا نبتهج أنا وإخوتي الثمانية ولا نمانع الاصطفاف لتحيته. قالت لي وداد مرّة: «إنّه يتظاهر» ولم أفهم مقصدها!

في كل مرّة كان يبدو أكثر اهتمامًا بهندامه بينما تبدو زوجته أكثر بؤسًا. لم تكن ترفع رأسها، كتفاها مقوسان، وعيناها تنظران على

الدوام إلى شيء لا نراه على الأرض. لذا لم أتوقع للحظة أنّ ذلك الرجل كان سيموت قبل زوجته لأي سبب كان!

في أعمق ذرة من قلبي، كنتُ أغبط وداد على والدها الذي يعملُ سائقًا لحافلات المدارس. لا أدري لماذا أتذكر هذا الشعور الآن رغم خجلي العميق منه في الماضي؟ كان مجرد تخيلي لمكوثه بينهم في المساء، ضحكه، قصصه، حضنه، يُصيبني بشعور غير مريح، بينما يعود والدي في عطلة نهاية الأسبوع ويقضي معنا وقتًا قصيرًا جدًّا. ولكي أتخلص من شعوري المشين ذاك، كتبتُ رسالة إلى وداد، لكنها لم تكن لتكترث، رغم أنّه أحدث أثرًا بالغًا في نفسي.

لم تكن وداد تحب البيت. كانت تريدنا دائمًا أن نذهب إلى المزارع وكانت مزرعة جدي التي نقطن فيها كبيرة وممتدة إلى البحر، وهنالك نتبادل الرسائل التي كتبناها إحدانا إلى الأخرى. كنا نحرص على ألا نفتح الرسائل إلا عقب مغادرتهم. لقد تمتعنا كثيرًا بالمشاعر والكلمات التي تبارينا على جعلها أكثر عمقًا وأكثر تنميقًا في كل مرّة. يحصل أن نقتبس الشعر أو المقاطع التي نحبها من المجلات، لكننا نفضل أكثر أن نعبر عن المحبة، وأكاد أجزم بأننا انشغلنا بطرق التعبير أكثر من انشغالنا بمشاعرنا واقعيًّا.

في المشي بين المزارع كنا نقص أغرب القصص التي حدثت بين قريتي وقريتها وماذا سمعنا وشاهدنا، لم يكن للصمت أن يمر بيننا. لاحقًا أدركتُ أنّ وداد في المزرعة، هي غيرها عندما تكون في حضور أمّها وأخواتها!

تجرأتُ مرة على ممازحتها بأنّ والدها يثير إعجاب نساء حارتنا. كنّ يتحينّ الفرص للنظر إليه، كان يُعطي انطباعًا بأنّه مختلف عن بني جلدتنا، ثيابه ذات المقاسات الدقيقة فوق جسده الرياضي المشدود، عطوره التي تعلق بأنوفنا، تقاطيع وجهه ونظرته وطريقته في الكلام. لقد تمكنت بعض جاراتنا من مصافحته عدّة مرات في لقاءات خاطفة بين مجلس الرجال وغرفة النساء. أخبرتُ وداد بأنّ تلك الأحاديث القليلة مع والدها تكرُّها نساء حارتنا بصيغ مختلفة في أيام لاحقة لانقطاعهم عنا. لكن وداد كعادتها لم تُبدِ أي اهتمام يُذكر. خشيتُ أن أسرب إليها ما يُقال عن أمّها. لقد كانت تلك النمائم الصغيرة شديدة الفتك ولا تحتملها رسائلنا المزينة بالورود والقلوب!

إنّ تصور أن نلتقي مجددًا في خيمة عزاء تدفعني إلى توتر هائل، فنحن لم نرَ بعضنا بعضًا منذ سبعةٍ وعشرين عامًا، بل إن إحدانا لم تطلب رقم الأخرى عندما صار في حوزتنا هواتف، تركنا العلاقة تذهب إلى ذبول خافت إلى أن استيقظت تفاصيلها بنبأ وفاة والدها.

عندما دلفتُ إلى الخيمة وبينما أقلبُ ناظري في السواد الذي يُعبئ المكان، إذ بيديها تطوقاني. كانت كمن سقط عليَّ من علٍ. شعرتُ بثقل المباغتة وبحرارة الالتحام. لقد سهلت عليَّ الأمر عندما تذكرتني، ربما ساعدها وقوفي إلى جوار أمّي. كانت أمّي علامة كافية بالتأكيد.

بدت شاحبة، بعينين غائرتين، وبشفتين غليظتين مائلتين إلى

اللون البني، ظهر عليهما تقشر طفيف. تهدل كتفاها، وأظهرت طيات ثوبها بطنًا مترهلًا، رغم نحولها العام. قدرتُ أنّها قضت ليلة أمسها في بكاء طويل.

لم تكن في حوزتي كلمات جيدة في وقت كهذا. أعرف أنّها محطمة، فاختفاء الآباء من حياتنا يعني أن نصير يتيمات حتى وإن كبرنا وصرنا أمهات، لا سيما والدها، والدها الذي كان على الدوام بالقرب منهم.

فضلتُ أن أضغط على يديها بين يدي وأن أردد ما يقوله الناس، الأدعية المكرورة بالرحمة والمغفرة. لكن نظرتها الشرسة كانت تقول شيئًا آخر. لم أفهم تجاور الشراسة والحزن في عينيها في وقت واحد. ضغطتْ على يدي اليمنى أكثر مما ينبغي، لتجلب جلّ انتباهي إليها. دلفت نساء وخرجت أخريات. تقاطع السواد في مشهد عجائبي. قاطعننا عدّة مرات لتحية ابنة المتوفى. جلسن وشربن القهوة وعقب دمعة أو دمعتين ذهبن في أحاديث الدنيا وتضاحكن.

من شقّ الخيمة شاهدتُ البيت، بيت وداد، لم يتغير البتة. رافقتُ أمّي لزيارة هذا البيت مرّتين متباعدتين من قبل، وفي كلتا المرتين كنتُ متحمسة لأرى المكان الذي عاشت فيه وداد، لكن البيت لم يكن يغدو أفضل من المرّة الأولى، بيت بأثاث قديم، جدران بألوان باهتة، لكلّ غرفة لون مغاير عن الأخرى. بلاطات دورة المياه الوحيدة مكسورة، وتسرب المياه المستمر فيها ترك اصفرارًا لا تُخطئه عين، خرطوم الماء لا يعمل، ولذا كانت الجدة تترك حوض

ماء بلاستيكيًّا كبيرًا مُعبأ حتى آخره وبه دلو أصغر حجمًا ليسهل علينا التصرف.

الأخوات السبع ينمن في غرفة بلا أسرة، يضعن فراشًا في الليل ويرفعنه صباحًا. في الزيارتين لم أتمكن من رؤية غرفة الأولاد. لكني لم أكن لأتوقع أنّها أفضل حالًا. بعض الأبواب بلا أقفال، تعجبتُ لأمرها وكان ثمّة حبل صغير يربط الباب بثقب في الجدار. الستائر متهدلة، ولذا تبدت أطراف بعضها أطول من الأخرى. لم تكن لديهم مزرعة، بالكاد نخلات قليلة متوزعة في حوش البيت. ولا أدري لماذا افترضتُ في طفولتي وجود تناقض هائل بين حضور الأب والبيت الذي لم يكن على حال جيد!

لكن ذلك البيت لم يُقلل يومًا من هندام الأب ولا من كرمه. لقد وضع أمامنا في الزيارتين تيسًا صغيرًا مطبوخًا بصحبة رأسه فوق صحن الأرز، وقبل أن نخرج كتبتُ رسالة قصيرة إلى وداد من سطر واحد: «ما سرُّ الأبواب التي بلا أقفال؟»

لم تُفلت يدي رغم المقاطعات، كما لم تنطفئ شراستها. كنتُ أشعر بتكلف وتعرق في آن. لم أحتمل أن تبقى يدي معلقة بيدها، لكن سحبها الآن سيعني أنّني لا أسدي المؤازرة التي يتطلبها عمر صداقتنا القصير.

«لم يطلب المسامحة» هكذا قالت وداد وهي في شرود، استفهمتُ الأمر، كمن لم يسمع في ظل الصخب الهائل، فأعادت قولها: «لم يطلب مني المسامحة.. هكذا ذهب.. كنتُ أجلس كل يوم وأنظر

إليه بعد أن قطعوا أصابع قدمه اليمنى ثمّ اليسرى جرّاء السكري. أنتِ تذكرين شراهة والدي. لم يكن لأحد منا أن يوقف شراهته». ثمّ نظرت إلى عيني بتصميم مشوب بحزن، تهدل طرف فمها في اللحظة نفسها التي انهمرت فيها الدموع: «كان البؤس والأسى يتقد في عينيه لكنه لم يطلب مسامحتي».

مسحتْ أنفها المحمر بقطعة محارم مجعدة ونشجت: «لقد دعوتُ الله أن يأخد قدميه.. هل تظنين بأنّ الله استجاب لي؟» تراجعتُ بظهري إلى الوراء، بينما فوج من السواد مرّ بيننا وعطل رؤيتي إياها. غاص جسدها النحيل بين أجسادهن ودموعهن الصادقة والمستعارة، وكنتُ أرغب في أن أفهم ماذا كانت تريد وداد أن تقول لي وما إن عبرن كغيمة ثقيلة، حتى أخذت تبلل شفتها السفلى بضمها بين أسنانها بين الفينة والأخرى، ثم شاهدتُ شفتها المتشققة تخرج مُبللة برضابها. عادت نظرتها المتأهبة لقول شيء ما: «كنتُ أذهب إلى المستشفى كل يوم لأراه.. لقد شاب اسودادٌ قاتم قدميه بعد بتر الأصابع.. قال الطبيب ليس لدينا خيار سوى بتر الساقين أيضًا. بكيتُ كثيرًا وأنا أصلي لأنّي دعوتُ على قدميه ولم أكن أظن أن الله سيستجيب لي.. لقد دعوتُ الله أن يمحوهما من جسده».

غطت وجهها بكفيها ونشجت من دون صوت، كل ما استطعتُ تمييزه آنذاك اهتزاز كتفيها المتواصل. أقنعتُ نفسي بضرورة أن أمنحها الوقت. الوقت الكافي لتقول قصتها على نحو جيد.

تنفست وداد عدّة مرات كما كانت تفعل في حوض مزرعتنا الذي كنا نغوص فيه لساعات: «كان يركلني كل ليلة عندما كنتُ أرفض العرسان الذين يجلبهم لي. يقرضُ المال للرجال ويعدهم ببناته السبع». ضحكت ثمّ أشارت إلى البيت الواضح من شق الخيمة بسبابتها: «كلنا خرجنا من ذلك البيت لتسديد دين ما.. تمامًا كما فعل مع نعاج أمّي وأبقارها».

صمتت قليلًا، فبدت وجنتاها أكثر ضمورًا: «كان في وسعه أن يطلب المسامحة لكنه لم يقل شيئًا، لم يتحدث إلينا، كان يُدير وجهه دومًا ويغرق في الشرود. لطالما وقفتُ أمامه ووضعتُ عينيَّ في عينيه وانتظرتُ لحظة أن يفتح فمه. لكنه فضل الموت على أن يفعل ذلك».

بدت عيناها تبرقان وأنفاسها تتعالى: «كنتُ عديمة الخبرة». شاهدتُ تموجات جسدها العارمة وقشعريرتها ودموعها وانفعالاتها وتأوهاتها، لكني مكثتُ في مكاني عاجزة عن فعل شيء لتهدئتها. أقبضُ على حقيبة يدي في حجري بكلتا يديَّ خشية أن تعلق يدي لو مددتها مجددًا بين يديها. شيء من الحذر ملأني، كأنّي لا أعرف هذه المرأة. كأننا لم نلتقِ في طفولتنا. نفضتُ رأسي مرارًا غير مصدقة، فلا يمكن لتلك الطفلة التي تضحك بصوت عالٍ وتركض وتقص القصص وتغطس في حوضنا بجرأة أن تصير هذه المرأة!

تهيأ للجميع أنّي صديقة حميمة لها وأنّني سأجيد مواساة البنت البكر في مصابها. شعرتُ وكأن الجميع تواطأ لنكمل حديثنا، ورغم

الصخب الذي ملأ الخيمة بقيتُ متسمرة في مكاني محاولة فهم ما يجري. وآنذاك شخصت عيناها، ميزتُ الخطوط التي علّمت جبهتها:

«وقع حظي مع زوج له زوجتان سابقتان وأبناء يملؤون البيت ويدبرون المكائد، كنتُ الزوجة الثالثة. أصغر من عمر بناته. كنتُ خائفة. العلاقة التي يطلبها على الدوام تُصيبني بنوبة تشنج، كان كمن يُفكك قطع امرأة متخشبة». اختلط خيط الدمع بسائل أنفها فتناولت قطعة محارم جديدة وبدأت تمسحهما معًا: «عندما شكوتُ أمري إلى أمّي واستني بأن قصتنا أنا وهي قصّة واحدة».

أخذتْ نفسًا عميقًا وتبادلت التحية مع نساء جدد عبرن بيننا مودعات، فقد تعالى صوت الأذان في المسجد المجاور، وكان ذلك علامة كافية لانصراف الجارات القريبات.

لكن تلك الانسحابات المتواصلة لم تُعطل للحظة رغبتها في الحكي: «عندما جئتُ ومعي ابناي. واحد بين ذراعي والآخر في بطني وشكوتُ إليه أنّ زوجي يشتمني ويشتمه. نظر إليَّ بطرف عينيه وقال: شتمني أنا؟ اللعين. ثم أردف: أنتِ يمكنك البقاء أمّا هذا والآخر الذي في بطنكِ فلا مكان لهما هنا».

ثمّ ضحكت وداد، ضحكت وعيناها تُضيء بحبات الدموع: «ابناي اللذان رفعا جسده المبتور وأسندا كتفيه إلى كتفيهما، وحملاه إلى المسجد والدكان والمستشفى، ذهب من الحياة من دون أن يطلب المسامحة مني ومنهما». قبضت وداد رأسها بين أصابع يديها وأجهشت بالبكاء. تطلَّب الأمرُ مني أن أضغط على كتفيها. أن

أصدر ردة فعل ما، لكن صوتًا في داخلي منعني، صوتًا، كان يقول: «نحنُ لا نعرف هذه المرأة حتى نحضنها»!

بعد برهة وجدتُ نفسي أقول لها: «في قصّة اليأس هذه، يبدو أنّ ابنيكِ هما أفضل ما حدث لكِ».

ومجددًا قبضت يدي بين يديها: «كان في عينيّ أبي ما جعلنا نجفل منه طوال حياته. شيء ما، لا يعرفه غيرنا. كنتُ أريد أن أقول له في اللحظات التي كان ينازع فيها الموت: لقد استوليت علينا».

نظرت إليَّ في تصميم أيقظ وجهها الطفولي بداخلي، لقد تذكرتها الآن بوضوح تام، تابعت قائلة: «تذكرين أقفال بيتنا. أنا أحتفظ بكل رسائلكِ إلى الآن. تذكرين. لقد كان يكسر الأقفال ليركلنا. كنتُ أتكور على نفسي وأطلب من الله أن أستيقظ في الصباح وقد اختفت قدماه إلى الأبد».

ارتعش جسدي على نحو مفاجئ وتسلل البرد إلى أعماقي، ثمّ شعرتُ بتنمل طفيف في ساقيّ. لكن ذلك الخفوت الذي أصابني لم يكن ليمنع تدفق وداد عن الحكي: «أُنعش مرتين، في الثالثة قال الطبيب: قد نُسبب له الأذى وعليكم أن تدركوا أن الأمر ليس هينًا عليه. كنتُ الوحيدة التي رغبت في إنعاشه على نقيض إخوتي وأخواتي. أردتُ ألا يذهب هكذا.. كأن شيئًا لم يحدث. لكنه ذهب». وغمرتها الدموع مجددًا.

من رآنا من مسافة قريبة، من رأى الدموع والشفاه المرتعشة،

خمّن بالتأكيد أن المرأة التي تجلس قبالتي وتبكي في حضني في خيمة العزاء، تتوجع لفقد والدها الذي غادر الحياة قبل يوم، إلا أنّ أحدًا لم يكن ليظن أنّ بكاءها الصاخب يجاوره خذلان صاخب!

وضعت أمّي يدها على كتفي، إشارة إلى ضرورة أن نغادر أيضًا. قمتُ وودعتُ ودادً فتعلقت بحضني. تساءلتُ في نفسي لثوانٍ قليلة: «أين كنتُ أنا بينما كانت تعبر مأزقًا من هذا النوع؟»

وقبل أن أنفلت من حضنها قلتُ لها: «هذا الكمد لا يُعذبُ والدكِ الآن، وإنّما يُعذبك أنتِ، يُعذبُ أيامكِ القادمة». ارتخى الحضن بيننا إلا أنّ أصابع اليدين ما لبثت حتى تشابكت: «عليكِ أن تنقذي نفسكِ»، قلتُ لها. نظرتْ إليَّ في تشكك وكأنّي أستخف بأوجاعها. آنذاك شعرتُ بضرورة أن أفك أصابعي وأن أمضي مُبتعدة.

وقبل أن أجتاز عتبة الخيمة نظرتُ إلى عينيّ أمّ وداد، المرأة التي باتت أرملة. ثمّة ما اختلف الآن فيها، ها هي الأخرى ترفعُ رأسها وتضع عينيها على عيني جاراتها وتحكي شيئًا ما لم أستطِع القبض عليه. خرجتُ كمن يفرّ من براثن الثأر المُتقد في الأعين.

عندما أنزلتُ أمّي إلى جوار بيتها أكملتُ طريقي إلى بيتي، من دون أن أفتح الراديو، كانت مشاعر غامضة تعتمل في داخلي، زاد كآبتي ضوء النهار الذي بدأ يخفت تحت غيوم رمادية تنبئ بأمطار ليلية. شعرتُ آنذاك وكأنّ صورة النُّبل المرتبطة بأحدهم في طفولة بعيدة تتمزق في داخلي.

مخلوق بائس يتسكعُ في شحوب

آه، ما الذي يزعجك، أيها المخلوق البائس

يا من تتسكّع وحيدًا في شحوب

لقد ذبل نبات البرديّ في البحيرة

فما من طيور تغني

جون كيتس

جدي يجرح حقله

يؤذن جدي لصلاة الفجر، فنخرجُ نحن الأطفال في رطوبة الصيف نصف نائمين، برفقة قفراننا وسطولنا لنلتقط حبّات التمر المُتساقطة ليلًا. تفرشُ النخلاتُ كمًّا غير قليل من ثمرها ليبدأ شقاؤنا الصباحي. بالكاد نرى بعضنا بعضًا في حُلكة الفجر، فأتخيلُ الساحرات العائدات من نزهتهنّ الليلية يتمشين بين النخلات ويُراقبننا عن كثب. أُبعدُ خيالاتي قدر المستطاع، لأحافظ على دقات قلبي مُنتظمة، نسمعُ صرير العربات ذات العجلات الثلاث، التي يحملُ فيها أبناء عمومتنا، حمولة قفراننا وسطولنا إلى المسطاح.

أتذمرُ راغبة في قسط من النوم، أو فسحة للرسم في بقايا أوراق ودفاتر المدرسة أو كتابة شيء ما عن حياتنا العادية، لكن الوقت ينسكبُ مني في أعمالٍ لا نهائية.

يُفرّقُ أهلنا بيننا لنتمكن من جمع أكبر قدرٍ من التمر الذي سيجففه جدي لاحقًا فوق «المسطاح» دون أحاديث زائدة، يُعرِّضُ جدي ما جنيناه لحرارة الشمس، وفي فترة العصر يأخذوننا مجددًا

إلى المسطاح لتنقية التمر الجيد من التمر الفاسد، يعرفون جيدًا أيّ النخلات ستكون طعامنا، وأيّها ستكون للماشية، وما إن يجف التمر على نحوٍ جيد، حتى تنضده أمهاتنا وجداتنا في الشوالات، في انتظار أن يأتي الرعاة في الشتاء المُقبل لشراء تمورنا أو المقايضة عليها.

لم يكن جنيُ التمر عملنا الوحيد، كنا نجني الليمون أيضًا، وثمر المانجو، ونقطف الفليفلات الحارة. نحظى بفرصة الاستمتاع الوحيدة في الحوض الذي يتوسط حقلنا عصرًا، نغوصُ ونسبح، نطفو بأجسادنا الصغيرة المُتعبة مُتأملين السماء، حالمين بحياة أخرى أبعد من حقل جدنا.

عندما كنتُ صغيرة ظننتُ أنّ العالم لا يتجاوز حقل جدي، وأنّ تلك هي حدوده، وأنّ ما خارجه هو عالم هُلامي، لا يعدو أن يكون ديكورًا، وأنّ الكائنات الحية هي نحن، وهي أعمامي وعماتي وخالاتي، حتى أنّ خالي الوحيد الذي يعيش في مسقط، كنتُ أشك في كونه كائنًا حقيقيًّا. الجيران وابتساماتهم، زميلات المدرسة، كنتُ على يقين أن لا حياة لهم، ولا هموم ولا أفراح، فعندما تختفي زميلات المدرسة خلف أسوار بيوتهن، كنتُ متأكدة أنّ حياتهن تتجمد ولا تضخ أيّ حيوية تذكر.

تطلب مني الأمر كثيرًا من الوقت لأصدق عكس ذلك. «أليس جنونيًّا أن يكون في الكرة الأرضية كلّ هذه التفاصيل والحكايات؟!»، هذا ما كنتُ أقوله لنفسي. ظاهريًّا، كنا نحن الأبناء، تمامًا كالأبقار والماشية والدجاجات، أو في منزلة مُتقاربة منها، بل

لو كان أحدنا شقيًّا، لتمنى الآباء لو أنّه كان عِجلًا أو تيسًا! لأنّه سيغدو أكثر منفعة. كانت النظرة إلى الأبناء وأعدادهم المتزايدة من عام إلى آخر قائمة على المنفعة، أبناء أكثر يعني بالطبع أيادي عاملة أكثر، أحاول أن أتعاطف معهم الآن، فمن الأكيد أنّ شظف العيش هو ما كان يُملي عليهم نمط حياتهم التي -رغم ظاهرها الموجع- احتفظتْ بالحُبّ والحميمية والخوف في طياتٍ عميقة وجوانية، قلّما يصرحون بها.

يجرحُ جدي أرضه بالرفش، يميلُ رأسه ناحية الأرض، ناظرًا إلى ساق شجرة واهن أو ورقة قضمتْ أطرافها يرقات شرهات، يتحسسُ ثمرة ناضجة آن أوان قطفها، أو خلية نحلٍ مندسة بين أشجاره، وما إن يرتفع جدي قليلًا بجسده حتى يحجب غلالة الضوء عن عينيه بكوعه المُشهر صوب السماء. لا يرفع جدي رأسه إلى السماء إلا ليراقب السحب فيما لو أرادت أن تحتضن بعضها بعضًا ليهطل المطر، فيمتلئ جوف بئرنا ويخضر حقلنا.

حياة جدي الموسومة بالغموض الضاري بالنسبة إلى طفلة صغيرة في عمري آنذاك، انجلتْ بمرور الوقت. كنتُ أبحثُ دومًا عن جوهر شقائه، الشقاء المُغلف بالمتعة الخفية.

لقد فضّل جدي أن تصفر أرضه على أن يدخل عاملًا آسيويًّا ليصلحها، كان مزهوًّا بنفسه، بقوة ساعِدِه الذي خانه بمرور الوقت، كنّا آخر مزرعة في قريتنا يدخلها عامل، كان جدي مُحتدًّا لأنّهم يفسدون كلّ شيء، «يقتلون الأرض، لا صبر لديهم، يريدون

ربحًا عاجلًا، يسكبون الأسمدة الكيماوية في الآبار وفي الأحواض، يريدون ثمارًا تجهزُ في أيام»!

فئران مخزن التمر

شاهدتُ مخزن التمر اللصيق ببيتنا، حيث تختبئُ عائلة جرذان، تصورتُ من مناوراتها السريعة وراء شوالات التمر، أنّها بأعدادٍ لا نهائية. لم يكن في مخزن التمر لمبة تُضيء المكان، يستعينُ جدي بضوء النهار وحسب، ليُخرج تموره من الشوالات العملاقة، ولم تكن تتزعزع ثقة الجرذان بمخابئها للحظة. يضعُ جدي تحت التمر أواني خاصة ينسكبُ فيها عسل التمر المنضود، كثيفًا ولامعًا، وعندما يطلبُ مني أن أذهب إلى مخزن التمر لأحضر العسل، كنتُ أرتعد وأنا أتصور الجرذان تتمشى فوق جسدي، أو تقرض أصابع قدميّ. لكن جدي لا يتفهم أبدًا عدم رغبتي في الذهاب إلى المخزن وجلب العسل، كانت تلك أكثر اللحظات رعبًا في حياتي، غلالة ضوء تدخل من شق باب المخزن تكشفُ عن شوالات نضدت بعضها فوق بعض وصولًا إلى السقف. لم تكن خيالاتي العنيفة الشرسة لتهدأ أبدًا آنذاك، أتناول الأواني وأنا أرتجف، وتحت خطوط الضوء المتسربة ألحظ الجرذان أكثر رعبًا مني، فأخرج. وضع جدي أقفاصًا

صغيرة في المخزن، نصب فيها فخاخا قاتلة، قطعا كرتونية عليها تفاحٌ وجبنٌ فوق مادة لاصقة. علقتْ عائلة الجرذان، كثير جدًّا منها، امتلأت الأقفاص بها. ولكني لم أتمكن من الشماتة بها وهي تحاول جاهدة تخليص نفسها، كان الذعر يملأ عينيها الضيقة. بعد برهة حمل جدي الأقفاص فتبعته بتأنٍّ، دارت في خلده كثير من الأفكار حول الطريقة التي يمكن أن يُنهي بها حياة الجرذان، ثم فتح دينمو البئر فانبجست المياه في الحوض وعندما امتلأ الحوض، أدخل الأقفاص بجرذانها الخائفة في الماء. كنتُ أرتعد وأنا أتخيل استغاثاتها وموتها الذي كان سببه الوحيد، جوعها ورغبتها في الطعام.

مشية جدي الوئيدة والهادئة دون أن يخفق قلبه بالرحمة، دون أن يرتعش ولو قليلًا، وصرير الجرذان المستغيثة في لحظاتها الأخيرة، ولّد في داخلي كراهية متناقضة. أكره الجرذان وأكره موتها في آن، «أليس مجحفًا أن تموت لمجرد أنّها جائعة؟» أخرج جدي أجسادها المتهاوية بعد نص ساعة، وضعها في أكياسٍ سوداء حملها أبناء عمومتي بمرحٍ طفولي إلى صناديق النفايات في رأس القرية، تراكضوا وحاولوا مرارًا إخافتي وهم يلوحون بكيس الجثث قرب وجهي، ولكن حزني آنذاك تغلب على مخاوفي منها.

ظننا للحظة أنّ مخزن التمر، تخلص من كل الجرذان، لكن المخزن لم يخلُ منها فعليًّا، واصلت الأمهات المختبئات في الظلمة، إنجاب المزيد والمزيد لتثأر من جدي.

الأيدي الفارغة في موسم القطاف

موسمُ الليمون والمانجو كثيفٌ جدًّا في الصيف، حتى أنّ جدي كان يعود بكراتين الليمون من السوق دون أن يبيع شيئًا منها في بعض المواسم. بناتُ أعمامي الكبيرات يعصرن الليمون في دورقٍ بلاستيكي ويخلطنه بالماء البارد والسكر، فنشربه بهناءة بال.

نحصل على ثلاث مئة بيسة لقاء كلّ كرتونة نجمعها من الليمون، وفي ذلك كنا نتسابق كلّنا، نتحدى الأشواك وكثافة الأغصان التي تحط فوق أكتافنا كمخالب صقر، نتوقع أن تصادفنا خليات نحل مُستعدة للانقضاض علينا، وفي أحوالٍ أسوأ يحصل أن نصادف أفاعي تلوي جسدها المرن فوق الأغصان..

صنع جدي منامته من سعف النخيل، ليرقد فوقها قيلولة الظهيرة، واضعًا أسفلها أحجارًا متساوية، ليرفعها عن مستوى الأرض. ينام فوقها مبتعدًا عن ضجيجنا وعن مكيفات الهواء التي ظل يرفضها، مفضلًا البقاء تحت رحمة «مشبّة خوص النخل» التي تدفع الهواء يدويًّا صوب وجهه المتعرق. تحرسُ منامته أشجار

المانجو لكيلا نتجرأ ونقطفها غضّة، لكننا نحبها غضة مُغمسة بالملح والفلفل والليمون، وهو يريدها ناضجة وصالحة للبيع في السوق. نعرف أنّه سيضربنا دون رأفة لو قطفناها غضّة، ولكننا بتصميم نفعل، نقطف ونهرب ونرتعب من زعيقه، ونعرف أنّه مهما حاول الجري خلفنا فلن يجاري خفتنا، وستخذله ساقاه.

أمّي وزوجات أعمامي يُحضرنّ مُخللات الأمبا المخلوطة بقرون الفلفل الأخضر، يضعنها في برطمانات زجاجية يشتريها جدي ويعدها كي لا تنقص واحدة، كثير منها للشتاء القادم وبعضها للبيع. أخي الصغير كسر برطمانًا فارتعبتْ أمّي، خبأت بقايا الزجاج في مكان ما، ولم ينتبه لها سواي. العمّات يجلسن جوار المسطاح، يُنقين التمر الجيد من الفاسد، الجدات يُولين الأبقار والماشية والدجاجات جُلّ اهتمامهن. العمل لا يهدأ في حقل جدي كأنّنا في خلية نحل، النظرات المُريبة تصطادُ الأيدي الفارغة، تلك الأيدي التي لا تعملُ شيئًا كيديّ تمامًا.

فيضانُ أشعة الشمس فوق كتفيّ النحيلتين، والهواء يُبرد جبهتي ويتخلل ثيابي الواسعة وأنفاسي المتلاحقة، والعصافير التي تشقشقُ خارجة من أعشاشها بحثًا عن قوت يومها، تذكرني بولعي القديم بفكرة التخفي في هذا الحقل، خطوة واحدة وأغدو غير مرئية، في مكان لا يسألني فيه الآخرون عن أعمالي غير المنتهية، لا يسألني أحد عن شوالات التمر غير الممتلئة بعد، ولا عن التحول إلى فزاعة لحراسة جلبة القمح، لا عن جزِّ البرسيم بالمنجل الحاد،

ولا عن توزيع حصص الماء بشكلٍ متساوٍ أمام الأبقار المُسالمة، لا عن قبض قوائم التيوس بينما يجزُّ الجد شعرها المُحمل بحشرات «الكِت» المؤذية التي أدْمتها ودفعتها إلى حكاكٍ لا نهائي، ولا عن احتمال صياح الديكة التي لا تكفيها ديدان الحقل!

ثلاث ندب متقاطعة

لسعني الوجع عميقًا فشلّ حركتي، رفعتُ ثوبي الطويل، لأكشف عن قدمي اليمنى، انحنيتُ أكثر ضامّة ساقي إلى حجري، فملأ شلال دماء ثوبي المزهر. تلمستُ مكمن الوجع في قاع رجلي بأطراف أصابعي، فأدركتُ زجاج البرطمان المكسور والمنغرس في لحمي.

حدّق بي أبناء قريتنا وتصايحوا، ثمّ تلاشى ضجيجهم. انتابتني إغماءة قصيرة. آنذاك حلمتُ أمّي وهي تحكمُ القبض على الديوك بين قدميها بالقرب من صنبور الماء في فناء حوشنا القديم. تسحبُ أعناق رؤوسها المضطربة بيد وتجزها باليد الأخرى. ثمّ صحوتُ على زعيق الأطفال ويد أمّي تجفف عرق جبهتي.

ظهرت ثلاث ندبٍ مُتقاطعة في رسغ القدم اليمنى، وشق غائر في باطنها. كنتُ أركض وأركض، بقدميّ الحافيتين كعادتي متجاوزة أقراني، قابضة على حذائي تحت إبطي، لأصعد شجرة الغاف الأطول من بيتنا. الغافة ذات الأغصان الثخينة والمتباعدة. سمّينا

كل فرع منها باسم بلد نعرفه. كنتُ أُسمي الفرع الذي أقطنه باسم البلدان التي يذهب إليها أبي. لقد توجب على كل واحد منا أن يرعى رعيته من الطيور واليعاسيب وحشرات السيكادا.

حدث ذات مرّة، عندما غادرتُ مملكتي قاذفة كتلتي الضعيفة من أعلى الغافة كمن يطير في فضاء حر إلى الأرض، أن تصاعدت سخونة حارقة من باطن قدمي، فارتعشتُ ارتعاشات مخنوقة، لم يكن ثمّة بكاء أو صراخ قادر على تجاوز فمي.

بقيتُ في الفراش لأيام، لم أذهب إلى الحقل ولم أُطيّر عصفور النايلون الذي اشتراه أبي لي من أسفار بعيدة، ولم أختفِ بين الفزاعات كما كنتُ آمل دومًا.

أنفقتُ ساعاتي الطويلة أرسم وأكتب في دفاتر مُهملة، ومن شباك الغرفة أبصرتُ جدي، بطوله الفارع وحركته الرشيقة، لحمه الملتصق بعظمه، بطنه الضامر تحت فانيلته البيضاء ذات الأكمام القصيرة. صار جدي موضوعًا جيدًا للرسم، لا سيما لونه المشرئب بحمرة كستها الشمس سُمرة باذخة. لطالما أزعجه أن نكون في الغرف في الوقت الذي ينبغي أن نكون فيه في الحقل. لكن الطبيب قال بأنّ الندب الثلاث يلزمها الوقت لتشفى على نحو جيد.

أُغمقُ جسده بقلم الرصاص، أرسم عينيه، نظرته الحادة، أرسم يديه أكبر من جسده، يدان لم تعرفا اللهو، أمضيتا أوقاتهما في الزرع والقطف، ونالتا نصيبهما من الشوك واللدغ!

طحالب الحوض الأسمنتي

أرفعُ جسدي بلياقة طفولية، أجلسُ على الحافة، واضعة قدميّ في برودته المنعشة، تتحرك دوائر الماء حول قدميّ ثمّ تتلاشى. لم يتوانَ جدي عن تفريغ الماء من الحوض الذي نغمر أجسادنا فيه، فهو ممتلئ على الدوام بالطحالب الخضراء، نراهُ مُقرفصًا وإزاره مثني حول وسطه، يقشر الطحلب بدأبٍ شديد، الطحلب الذي يلتفُّ حول أقدامنا بخيوطه الرقيقة الدبقة، ويتآمر علينا لإيقاعنا. لم يكن جدي يُمرّر يده ليمسح تصبب عرق جبينه، يغدو مُنسجمًا كأنّه جزء لا يتجزأ من صورة حقلنا، نرقبه عن بعد على أمل أن يتم مهمته بسرعة، لننعم بحوضنا ونستمتع بعمقه الساحق وعذوبة مياه بئرنا الباردة في حرارة القيظ اللاهب.

أحضر جدي طابوقًا رصّه مع الأسمنت في قاع الحوض، وظلّ يعمل يومين إضافيين، ولم يذهب إلى عزاء ابن جيراننا، الذي مات غرقًا سوى مرّة واحدة. قلنا: «هذا الجد بلا رأفة ولا رحمة». لكن العرق كان يتساقط بكثافة من دون أن يمسحه كعادته بكم فانيلته

البيضاء، وتهيأ لي من بعد، أنّ عرقه الصافي مُختلطٌ بدموع صافية أيضًا، لكنني نفضتُ رأسي واستبعدتُ الفكرة. في نهاية الأسبوع عرفنا أنّ جدي زرع طابوقًا بالأسمنت ليُقلل من عمق الحوض. كنتُ أبقى متعلقة بجدار الحوض، بينما كانت قدماي حرتين لا تلمسان القاع، والآن بات في إمكاني أن أقف على ساقي والماء بالكاد يصل إلى كتفي.

لم يكن جدنا يغمرنا بالأحضان والقبلات، كان يُسدي الأوامر طوال الوقت، وعندما اصطادني أقطفُ المانجو الغضة في ظهيرة حسبته نائمًا فيها، كان يزعقُ بعنف أسفل الشجرة، وكنتُ أرتجف فوق أعلى غصن منها رعبًا. الصبية يسارعون بالنزول تحت وطأة زعيقه المرعب، لكنني أدركتُ أنّه لا يستطيع، بأي حال من الأحوال الصعود، ولذا كان عليَّ أن أبقى حيث أنا، ظل كلٌّ واحد منا متشبثًا بموقعه، في انتظار أن يتنازل الآخر، تجرأتُ وقتها وقضمتُ المانجو الغضة أمام عينيه، استشاط غضبًا ثم ذكرته بموعد صلاة العصر. غادر جدي حالفًا بأغلظ الأيمان.

انتابني حزنٌ غامضٌ من جديد، شعرتُ بوقع يديه على الطحلب اليابس على حواف الحوض، الخطاف الذي يستخدمه يصطدم بجدار الحوض، ويُحدث صوتًا خشنًا تصطكُّ له أسناني ويصيبني بقشعريرة. رفعتُ رأسي، كان طائرُ العقعق الذي تتطير منه أمّي ساكنًا فوق غصن شجرة المانجو، في ذلك المكان الذي ينكشف على حقلنا، ولا ينزل العقعق إلا عندما يرى فريسته قريبة،

هو الآخر كان ينظرُ بحزنٍ مماثل، في وقتٍ كان دمعي يحدثُ اهتزازًا طفيفًا على سطح ماء الحوض.

دجاجات أمّي تضمرُ كلماتها

ترسلُ الشمس فيض شلالات ضوئها، فتنسكبُ غلالة الضوء على وجهي وثيابي، أتحسسُ رهافته الأخاذة وهي تخترقُ أصابعي، أرتجُّ مذهولة كأن ذلك يحدثُ لأول مرّة. أجول ببصري في الحقل، أشاهد الدجاجات يُخبئن رؤوسهن في أعلى أغصان شجرة المانجو، غير مُباليات بانتظارات أمّي. أتذكر كم كنّ يرفضن المبيت في القفص، فضلنّ المبيت على أغصان شجرة الأمبا! امتلأتْ وقتذاك أمّي بغضبٍ جنوني، فابتعادهنّ المفاجئ عن القفص دفعهن إلى وضع البيض في أماكن عديدة، لم يكن من السهل أن تتحصل عليها. عن عمدٍ تجاهلن «البيضة الفخ» التي اشترتها أمّي من السوق ليرقدن عليها ويضعن بيضهنّ جوارها، تجاهلن القفص الحديدي الذي صنعته عند الحدّاد، ودفعتْ مبلغًا جيدًا لتضمن مشارب الماء والصحون المُعلقة التي تضع فيها طعامهن.

يؤلمني أن أرى نملة تعبرُ حقلنا مُحمّلة بأحمالٍ تفوق وزنها الضئيل، فأجدني أحملها في راحة يدي بتأنٍّ مخافة أن يسحقها أحدهم،

ولكن سرعان ما أصاب بلعنة اللاجدوى، لا جدوى من أيّ شيء، فأهرسها بين يديّ، أهرسها لأدفع عنها شبح العيش والأعمال الشاقة التي تنتظرها. «النملة المسكينة» أقذفها بعيدًا جدًّا في ركن قصي من الحظيرة كأيّ نفاية قذرة، ثمّ أتمنى لها أن تنام دون ضغينة وحسب. أهرسُ الفراشات، أهرسُ الدود والذباب الصغير، أعلقُ أشواك النخيل في الكائنات الهشة التي أصادفها مُلتصقة بأشجار حقلنا، فيعلو أنينها دون أن يرفَّ لي جفن، أودُّ أن أوفر عليها رحلة العيش وحسب، وأعود في الأيام التالية لألتقيها هي أو غيرها من دون استسلام أحدنا. وحدها عصافير الدوري التي تسقطُ من أعشاشها التي بنتها في مُكيف بيتنا -مُستنجدة بالبرودة المتوهمة- أرفعها بتأنٍّ كي لا تتأذى، أتأمل جسدها الصغير، لحمها غير المكسو بالريش بعد، فمها المفتوح والجائع تمامًا. تقول أمّي: «طيور الدوري تهجرُ صغارها لو شمّت رائحة البشر عليها»، لذا كنتُ أحملها فوق منديل، وأعيدها قبل عودة الأمّ. كنتُ سأجنّ لو هجرتِ الأمّ صغارها، لمجرد رائحة لعينة تخرجُ من جسدي.

لقد تجلى الذعر في صور لا نهائية، من البكاء الليلي للمِعزات الحزينات، لأنّ لحوم أبنائهن سبب امتلاء بطوننا في العيد. ورغم أنّني توقفتُ لفترة غير قصيرة عن تناول لحومها، فإنّني سرعان ما يئستُ وعدتُ لأتلذذ بها، شأن كلّ أفراد عائلتي التي لم تكن لتستوقفها حشرجةُ الأصوات القادمة من الحظيرة، لمجرد الشفقة حتى. لا أدري حقًّا إن كانت الدجاجات تحزن وينفطرُ قلبها كما يحدثُ للماعز

والأبقار، ما كنتُ متأكدة منه أنّها شديدة القلق والحرص، شديدة الدفاع عن صيصانها، حصل أن لاحقتني دجاجة دون هوادة، لمجرد أنّني اقتربتُ لألمس صيصانها، بل إنّها تجرأتْ ونقرتْ رأس سبابتي. أوجعتني، نظرتْ إليَّ بتصميمٍ لا يمكن نسيانه، نافشة ريشها، مُبدية نفسها أضخم من هيئتها المعتادة، النظرة القلقة وريقها المتأرجح باستماته، كأنّما تضمرُ لي كلمات لم تستطِع قولها، لكنها كلمات تامّة الوضوح في آن.

تيسُ الراعي سليم

أتى الراعي سليم إلى بيت جدي يحملُ تيسًا صغيرًا يُحيطه بين يديه، صغيرًا إلى درجة أنّه ما يزال يرضعُ من زجاجة أطفال، بعد أن انتزع من تحت ضرع أمّه. قال سليم لجدي: «لا أملك ثمن شوالات التمر الخمسة عشر التي أخذتها الشتاء الماضي منك، ولكن لديّ هذا التيس.. خذه لقاء الدَّين». تفحصه جدي جيدًا، ثمّ طلب من عمّي ضمّ التيس إلى تيوس حظيرتنا. تشجع سليم قائلًا: «أرغب في خمسة عشر شوالًا أخرى لهذا الشتاء، تكادُ ماشيتي تنفقُ من شدّة الجدب، لم تمطر السماء هذا العام أيضًا»، وأردف: «لعلي أسدد ثمنها العام المقبل». أمر جدي عمّي أن يُناول سليم ما طلب من مخزن التمر، فظهر ابتهاجٌ صغيرٌ في قسمات وجهه القاسية، الوجه الذي لطالما أخافني بسبب الجفاف الشديد الذي أصابه جرّاء البرد القارس في الصحراء حيثُ يعيش، وطيات التجاعيد المُتهدلة على جانبيّ خديه وفوق أصابعه شديدة السُّمرة.

حمل الشوالات في «البيك أب» الأحمر، وغادر مُسرعًا كما جاء.

أطلّ التيسُ الصغير الذي لاحقته التيوس الكبيرة، برأسه الخائف واللاهث من ثقوب الحظار. قال عمي مُتندرًا: «انظروا إلى وجه سليم». ضحكنا كلنا، وبقي التيس سليم في مزرعتنا لأعوامٍ يُذكرنا وجهه بدَين شوالات التمر التي لم يُدفع ثمنها بعد.

خِرق «أريان» وحزنه

قريبات جيراننا المُترفات اللواتي يعشن في مسقط، يأتين إلى حقلنا أيام العيد والإجازات، يحملن دُمى حقيقية فيثرن غيرتنا. أخمن أنّنا يمكن أن نصنع الدمى أيضًا، ولكن ما ينقصنا الفساتين وحسب! يتركُ «آريان» خياط القرية، بقايا الأقمشة في كرتونة كبيرة جوار ماكينة الخياطة، التي تتزين بفراشة ذهبية لا تطير. رأسُ «آريان» كرأس جدي لا يرتفع أيضًا، ليس لأنّه يجرح أرضه بالرفش، بل لأنّه يُدخل خيطًا في رأس إبرة على الدوام. رأسه مُنحنٍ ليرقب قطع القماش التي تمر بسلاسة تحت طعنات لا نهائية من إبرة تتحرك بصورة مُفرطة. يداهُ والإبرة كما لو خلقا معًا، كما لو كانا معًا في رقصة، كلّ طرف يعرفُ متى يبدأ ومتى يتوقف، كلّ طرف ينتبه لحركة الآخر ويقيس عليها ردة فعله. تتشكل الثياب بقياسات واسعة وضيقة، طويلة وقصيرة، سادة ومزركشة. لم أشاهده يرفعُ رأسه قط، إلا ليعدل نظارته المنزلقة فوق أنفه.

جواره يربضُ كنزنا الأثير، كرتونة مُمتلئة عن آخرها ببقايا خرق

الثياب التي تُفصلها نسوة مرتفعات الخضراء، لكنه يضنّ علينا ويرفض أن يُعطينا مهملاته. نظراته ممتلئة على الدوام بتوبيخ غامض، فيما لو حاولنا مدّ أيدينا، يُفزعنا ونعجزُ عن طلب كرتونته الغالية على قلوبنا، ولذا عزمتُ على مراقبته لأيام متواصلة، لكنّه لم يكن يتخلص من كرتونته في سلّة المهملات العامّة، وحتى اللحظة لا أدري عندما تمتلئ الكرتونة أين يذهب بخرقِهِ البالية تلك؟

كنا نريدها بقوة من أجل الدُّمى التي نصنعها من أغصان المانجو الصغيرة، لكنّه لم يُفسح لنا يومًا فرصة مدّ أيدينا لننعم بملمسها. أبحثُ دومًا عن أغصان جيدة يمكن أن توحي برجلين أو يدين أو بانحناءة خصر، لاحقًا يمكنني أيضًا أن أضيف أجزاء أخرى وأربطها بإحكام، أرسم عيونًا وشعرًا فوق قطعة قماش بيضاء أثبتها لتغدو رأسًا للدمية. كنتُ موهوبة، لكن تنقصني الفساتين. لم نكن نفهم الكبار، لم نكن نفهم أسبابهم، ما الذي يمكن أن يخسره «آريان» لو أنّنا كسونا بناتنا الدمى ثيابًا من بقايا أشغاله؟

كان ينبغي أن أضع خطة، وأن أقود الفتيات إلى كرتونة «آريان» بحذر شديد، لكيلا يشعر بأجسادنا الصغيرة وهي تتسلل. كان ينبغي أن ندرب أصابعنا على خفة الاستحواذ، على الركض الذي لا يعقبه نكوص.

بعد مشاورات طويلة، بعيدًا عن آذان الأولاد، اتفقنا على إلهاء «آريان» بينما تطير إحدانا بالكرتونة وتجري بأقصى ما يمكن من سرعة، كنتُ أنا غالبًا التي ستفعل ذلك. أعرفُ جيدًا أنّه سيطاردني

إلى ما لا نهاية، أركضُ والكرتونة بين يديّ، وقلبي يكاد يخرج من حلقي، وآنذاك التفتُّ نصف التفاتة لأنظر إليه، لكن «آريان» وقف عند عتبة المحل جامدًا في مكانه، يلتمعُ حزنٌ جارفٌ في عينيه.

نظرنا أنا والفتيات، إلى الكنز بفرح غامر، قطع بألوان لا نهائية وأحجام مختلفة. صممنا الفساتين، لم تتمكن إحدانا بعد من الحياكة، لا إبر ولا خيوط معنا، ولكننا نقصُّ القماش بالمقص الذي يقص به جدي صوف الخرفان، والذي يحتفظُ به في مخزن الزريبة جوار معداته الأخرى. تعاهدنا جميعًا على أن نعيد المقص قبل أن يشعر أحدٌ بغيابه، لكن لم يكن من اليسير استخدامه، كان كبيرًا بين أصابعنا، ونتف الأقمشة كانت صغيرة. بذلنا جهدًا كبيرًا، عقدنا الأربطة في وسط الدمى المخترعة، وامتلأنا بسعادة لا توصف في اللحظة التي تصورنا أنفسنا أمهات حقيقيات يُطلقن الأسماء على البنات المولودات حديثًا.

ابتهجت الدمى بين أيدينا بفساتينها الجديدة، ثم اختلقنا عديدًا من الحوارات وحفلات الشاي فيما بينها. أعدنا المقص إلى مخزن الزريبة، وخبأنا الكرتونة في مكان يصعب على الأولاد تخمينه، ليبقى مكاننا السريّ والآسر، وفي آخر الليل شغلني حزن «آريان»، وتمسكه المُفرط بمهملاته!

يدان مضمومتان في طيّات الثوب

انكشف الآن بيت جيراننا بوضوح أمامي، من الزاوية التي انتهى عندها حقل جدي، وبرز السياج الشائك. صرتُ أرى بيوتًا إضافية تحدق بحقل جدي حتى أنّها سدت مرأى البحر الذي اعتدنا أن نسمع هديره من غرف نومنا. لم يكن للشمس نية في مقاومة السحب الغامقة التي أحدقت بها، سحبٌ كثيرة بدأت تحجبُ ضوءها. تذكرتُ قشعريرتي الصباحية في شتاءات مماثلة، تحت كنزة صوفية صفراء يتداخلُ فيها الأحمر والأخضر على هيئة قططٍ صغيرة. كنتُ أرتجفُ ضامّة جسدي إليَّ، أصابعي ثالجة، وأمّي تدخرُ المدفأة ذات الأسياخ المُلتهبة لساعات الليل، كي لا نُبدد الكهرباء. جدي يتحركُ بخفةٍ في حقله، مُتخففًا من ثيابه، إزاره الأبيض مَثْنيٌّ حول وسطه غير شاعرٍ بشيء، وفانيلته قصيرة الأكمام خالطها اصفرارُ قطف الثمار. بقيتُ لأمدٍ غير قصير مُلتصقة بجدار بيتنا المُطل على الحارة، مُتأملة خروج الشمس لأدفأ، غير قادرة على الشعور بأنفي المُتصلب، ومن مكان غير قريب أبصرتُ جارنا العجوز يضربُ زوجة ابنه كعادته،

بينما الزوج مُسافر للعمل. الرجل العجوز الذي يُعيل زوجات أبنائه وأحفاده، لم يكن ليحتمل الخلافات التي تنشبُ في البيت، ولا يحتمل صراخ الأولاد، يغدو طقس الضرب غامضًا لطفلة في مثل عمري آنذاك، تلك اليد التي تهوي دون رأفة، والشتائم التي تنهبها تيارات الهواء الباردة بيننا. كان الصوتُ عاليًا لكن الكلمات غير واضحة، بعد بُرهة أتذكر زوجة الابن -كأنّني أراها الآن- مُتكئة على جدار بيت زوجها الغائب، تخيلتُ شحوب وجهها ودمعها الكثيف من صورة اهتزاز كتفيها المُتلاحق، خمنتُ يديها المضمومتين بين طيات ثوبها، باردتين كيديّ، وأنّها تفكرُ مثلي في الشمس التي لا تطلع.

الإبعاد الذي يعني مجيء الآخرين!

كانت مخاوفي تتجاوز كل ما ألفوه واعتادوا عليه، مخاوف جامحة وغير مبررة، حزنٌ باهتٌ يطفو الآن، لم أكن لأدل أحدًا عليه. وأنا أمشي الآن مرتعشة فوق ساقية الفلج محاولة حفظ توازني، تذكرتُ العمّات والخالات والجارات اللواتي عبرن حقل جدي، بعضهنّ سكن في غرف بيتنا الواسعة لأسباب كثيرة، ولكنها مؤقتة، رأيتهنّ مرّات عديدة يضعنّ علامات على أثدائهنّ، يستخدمن طلاء الأظافر الأحمر القاني ويضعن علامات تُفزع الأطفال الذين أوشكوا على إكمال السنة الثانية من أعمارهم، هنالك من تضع علامة ضرب وهنالك من يبدو ثديها وكأنّه يقطرُ دمًا، هنالك من لا يتسع وقتها لكلّ هذا، فتفركُ الفلفل الحار فوق حلمتيها وتدعو صغيرها ليشرب منه، فينفرُ منه إلى الأبد. كنتُ أختلسُ السمع لأحاديث النسوة اللواتي عبرن حقل جدي، كنّ بالنسبة إليَّ في ذروة الشيطنة والإيذاء، ذلك لم يمنع تحدثهنّ عن الآلام التي تعتمل دواخلهن، الجسدية والروحية على حد سواء، لا ينكفئن يتحدثن عن وصفات

تُخففُ من تحجر الحليب في أثدائهن، أو يتحدثن عن ضرورة الصبر والتأني ريثما ينسى الصغير تعلقه بمادة حياته الأولى. تبدو مهمة شاقة لكليهما، ولذا لم يكن من اليسير أن أدرك عبثية تلك المشقة، فبين حليب فائض وطفل جائع، يكمن كلّ تناقض العالم! حتى وإن كنتُ أعي وقتها أنّه الفطام الحتمي، إلا أنّ ذلك كان يقهرني بشدة. حليبٌ يُذرفُ تحت دُش المياه الساخن، لكيلا تصابُ الأمهات بالاحتقان، أو يتسلل من تحت ثيابهن في خطوط دافئة ومُتقطعة، بينما يبدأ الأطفال -بعد بكاءٍ طويل- اعتياد الأطعمة الصلبة. رأيتُ دموع بعض الأمهات تشي بالرأفة والصلابة في آن، لكن الدموع لم تكن لتغفر لهن، كان قلبي يشتعلُ بغيظٍ لا أقوى على تسميته أو التحدث عنه بوضوح.

يغدو الأمر أكثر صعوبة مما يبدو ظاهريًّا، يلدن طفلًا كلّ سنتين ويتكرر الفطام ويتكرر الحزن، ولا أعرف ما الذي يحملهنّ على كلّ هذا الأذى. لم تكن الأمهات وحسب، شاهدتُ الدجاجات اللواتي يفرضن حراسة مشددة على الصيصان، يتخلين عنهم بعد برهة من الزمن، يتركنهم عرضة لكل المخاطر المُحتملة في حقل جدي الشاسع، آنذاك تبتهجُ جدتي التي تعرف أنّ الدجاجة ستعاود وضع البيض. شاهدتُ العلاقة المتحولة بين النعاج والحملان، من الرأفة والإحاطة والاشتباك العاطفي، إلى الفتور الذي لا يُخفي شراسة وندية عجيبة، البقرة التي كانت تُباعد بين قائمتيها لتسمح لعجولها بشرب الحليب، تبدأ هي الأخرى من دون سابق إنذار برفسهم أو

استبعادهم، وإن لم تفعل، فإنّ جدتي هي التي ستربطُ العجول بعيدًا عن أثداء الأبقار، وما إن يجف الحليب حتى تعرف جدتي أيضًا أنّ كائنًا جديدًا سينمو في رحم بقرتها الولود. إنّه الإبعاد الذي يعني مجيء الآخرين.

ثلاث أخوات وهاتف في علبة

ثلاث أخوات، على الأرجح تقترب أعمارهن من عمري آنذاك، عندما كنتُ في الصف الثاني الإعدادي. لستُ على يقين من أسمائهن الآن، رغم أنّهن دأبن على تذكيري بها. أصواتهن غائبة عن ذاكرتي، لكنّ المؤكد هو ما صنعنه بي. الأحاسيس الأولى لمعنى أن يكون هنالك من هو في بقعة أبعد من مزرعة جدي ويتلقى كلماتي، بدا لي الأمر أشبه بمعجزة!

هل تذكر ذلك النص المتسلسل يا صائد العصافير؟ نشرتُه متسلسلًا في باب القراء في الجريدة الرسمية. نص بوليسي متسلسل، تنتهي كل حلقة منه نهاية مفاجئة أو هكذا خيل إليَّ، كحيلة بدائية لجذب القراء. ما حصل بالضبط -أيام الهواتف التي توضع في علبة خشبية، يُغلقُ عليها بالمفتاح، لكيلا يُهدر المال في سداد الفواتير- أني اتصلتْ بي ثلاث أخوات، ومن سوء تقديري للأمور آنذاك لم يخطر ببالي سؤالهن من أيّ مكان يتصلن بي؟ أخبرنني أنّهنّ حصلن على رقمي من الجريدة، وأنّهنّ يقرأن القصة المتسلسلة، ويقضين

الوقت في تخمين ما سيحصل للبطلة في قادم الأحداث. غمرتني أحاديثهن بلذة لم أختبرها من قبل. ولكنهنّ بدأن يتخاطفن سماعة الهاتف بأيديهن، ويكركرن ضاحكات، يضحكن ويتحدثن بعذوبة عن همومهنّ، إذ لم يكن من الكافي أن يعبرن عن اهتمامهنّ بالقصّة كما بدا لي. تحدثن عن أعمالهنّ المنزلية المُنهكة، والتي لا تنتهي، تحدثن عن تورطهنّ في أعمال الحقل الشاقة، أخبرنني عن الهاتف الموضوع في علبة، والمفتاح الذي في حوزة الأب الصارم، ولكنّهنّ تحايلن وأدخلن الأرقام بعود خشبي. دونتُ رقم هاتفهنّ في ورقة، ولكنني لم أجرؤ يومًا على الاتصال بهنّ، بالرغم من أنّ هاتف بيتنا أيضًا في علبة، لكن أبي لم يزح يومًا المفتاح من فوقها.

البنات الثلاث، ورغم مشاق الحياة التي تحدثنّ عنها، تمكنّ من قراءة الأجزاء المتسلسلة من القصّة في الجريدة، ولكنني لم أتمكن من ذلك. كان والدي يعمل في الإمارات، ولا أحد من أقاربي المجاورين يقرأ الصحف، وكانت محطة البنزين تبعد عن بيتنا مسافة أبعد من أن يصلها أخي فوق دراجته الهوائية، فكانت الأخوات الثلاث مصدر تأكدي من أنّ الجريدة قد نشرت الجزء الأحدث من القصّة. تتالت الأيام واختفى صوت البنات الثلاث وكركراتهنّ، وضاع الرقم الذي دونته. خمنتُ أنّ الأب اكتشف خداعهنّ وأخفى الهاتف بعلبته الخشبية إلى الأبد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

اختباءُ الطيور الجريحة

«تختبئ الطيور الجريحة لكي تموت»

أمين معلوف

عائدٌ إلى بيت الغابة

فككتُ يديه وقدميه بعد أن قضى معي نصف يوم، كان الحبل قد ترك آثارًا لن تُخطئها عين على معصميه وكاحليه، عندما رفعتُ اللاصق عن فمه بدا لي كمن ابتلع لسانه، تفصد جبينه عن حبّات عرق مُتسارعة، فخرج مذهولًا من بيتي.

نظرتْ إليه جدتي في ريبة بادئ الأمر، ثمّ عادت إليها نظرتها اللامبالية.

وقفتُ عند النافذة، شاهدتُه يعدو صوب بيت الغابة متلفتًا، في وقتٍ لم تعُد عصافير الدوري إلى أعشاشها بعد.

لم يكن ثمّة ما يُبهجُ قلبي أكثر من الذهاب إلى المصنع المهجور الذي يتوسطُ حلّتنا. هنالك حيث يمكن للخِرق البالية أن تكون حشوة للدُّمى، ولقطع القماش التي خلّفها الخياط "أريان" أن تكون فساتين، وللفتية المُتسخين بالطين أن يكونوا أمراء.

في المصنع المهجور، ينعدمُ إحساسنا بالزمن تمامًا، نذوب، إلا أنّ وصول أسرابٍ من عصافير الدوري بشكلٍ متواترٍ لشجر الغاف المحيط بنا، كان علامة جديرة بالانتباه، إذ سرعان ما يـعقبُ عودتها صوتُ جدي وهو يرفع أذان المغرب. تلك العصافير الضئيلة، التي يختلطُ لونها بين البني والأبيض والرمادي، تملأ السماء بشقشقاتها الجنائزية، فتعلنُ انتهاء اليوم دون مفاوضة أو مساومة، هكذا تتمكن تلك الأجنحة بالغة الرهافة من جلب الظُّلمة البائسة دافعة الشمس إلى أفولٍ حزين.

في أيامٍ كثيرة لم أعد أحصيها، تحتدُّ أمّي ويعلو صوتها الغاضب عندما أتأخر: "الغروبُ علامة كافية للعودة إلى البيت"، فأحبسُ نشيجي تحت بطانيتي البنية وأفكر: "ينبغي قتل كلّ عصافير الدوري بدمٍ بارد".

مكتبة
t.me/soramnqraa

هدى حمد

سأقتلُ كلَّ عصافير الدوري

9 789921 808353
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com